للتعديل

الحضارة الإسلامية

قراءة في النظرية والتطبيق

إعداد

الدكتور / عبد الباري محمد الطاهر

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المساعد

كلية دار العلوم جامعة الفيوم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ
وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
فَاسْتَغْفِرُوهُ
ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

(هود : من الآية ٦١)

الطبعة الأولى (تجريبية)
١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمــد لله رب العــالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعــــد ..

فــإن الأمــة الإسلامية تمر بمرحلة من أدق مراحلها ، هي مرحلة إثبات هريتها ، وتحقيق ذاتها ، وتصحيح مفهوم أبنائها وفهم أعدائها عنها ، وغرس روح الأمــل والعطــاء في نفوس ذويها ، لعلها تستطيع مواجهة عالم اليوم ، المضطرب الفجــاج ، المــتلاطم الأمــواج ، وهي كذلك في أمس الحاجة إلى وصل ماضيها المــشرق بحاضــرها المتحفز ؛ أملا في مستقبل زاهر، تعود فيه هذه الأمة إلى مجدها التليد ، وحكمها الرشيد .

والحــضارة الإســلامية "هي العَطاء والغِطاء ؛ عطاء الأمة الإسلامية عبر العــصور المتتالــية في مجالات العلوم والآداب والفنون والصنائع والمعارف جميعاً، وغِطاؤهــا الــذي يحفــظ علــيها هويتها ويصون ذاتيتها، ويحمي قيمها ويضمن استمرارها في التجديد والإبداع، ويقي كيانها من الاستلاب والضياع ".

"والــبحث في الحــضارة الإســلامية لا ينتهي عند حدّ ، لأن الحضارة الإســلامية موضــوع مفــتوح لا سبيل إلى إغلاقه، وحقول البحث فيها متسعة المــساحات ممــتدة الآفــاق ؛ وإنمــا تتنوَّع البحوث والدراسات حول الحضارة الإســلامية، بقــدر ما تتجدّد المناهج وتتطوّر الأساليب وتستجدُّ القضايا الفكرية

والثقافية والأدبية والفنية ما يقتضي دراسة جوانب من الحضارة الإسلامية على نحو جديد".

و"لقد صدرت في القرن العشرين مؤلفات علمية موثقة عن الحضارة الإسلامية، منها ما صنَّفه باحثون عرب ومسلمون، وصدر باللغة العربية وبغيرها من اللغات، ومنها ما كتبه مستشرقون ومستعربون كلٌّ من الزاوية التي نظر منها إلى الحضارة الإسلامية وبالمنهج الذي اعتمده، ومن أجل الغاية التي توخَّاها. ومن هذه المؤلفات طائفةٌ ذات قيمة عالية تعدُّ اليوم من المصادر المعتمدة التي لا يُستغنى عنها، صدرت بلغات متعدّدة . ولكن على قدر أهمية هذه المؤلفات التي تناولت الحضارة الإسلامية، وعلى الرغم من تنوّعها، فإن الحاجة إلى الكتابة عن الحضارة الإسلامية، تستجدُّ على الدوام" .

وهذه الدراسة الموجزة في مجال الحضارة الإسلامية ، قراءة في النظرية والتطبيق ؛ آمل أن تضع أيدي أبناء هذه الأمة على الطريق الصحيح ، والفهم الواعي العميق لمدلول هذه الحضارة الإسلامية ، وأنواعها ، وأسسها وسماتها ، أو بمعنى آخر عن الجانب النظري للحضارة الإسلامية ، ثم تضع يد القارئ على طرف من منجزات المسلمين في الحياة ؛ كجانب تطبيق عملي لهذه الحضارة ، وأخيرا قراءة في كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري للمستشرق الألماني آدم متز ، لبيان كيف يعرض بعض المستشرقين حضارتنا ؟ وكيف يفهمونها ؟ لندرك ضرورة تعرفنا عليها ، وبيانها للناس في صورتها الحقيقية .

لهذا جاءت هذه الدراسة الموجزة على النحو التالي :

الفصل الأول : في مفهوم الحضارة الإسلامية وأنواعها وأسسها وسماتها .

الفصل الثاني : في بعض إسهامات المسلمين في العلوم التجريبية .

الفصل الثالث : في قراءة نقدية لكتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز .

وقد دفعني للكتابة في هذا الموضوع :

* **ما لاحظته من الخلط** بين مفهوم الحضارة والإسلامية ومفهوم الحضارة الغربية ، عند بعض مثقفي اليوم ، وبين النظرية الحضارية الإسلامية والتطبيق العملي لها .

* **والحالة الانهزامية** التي منيت بها بعض العقول المبهورة بالتقدم التقني الحديث ، ناسية أو متناسية أنه جزء من عطاء أمتنا السابق .

* **ولتوضيح** الفرق بين ما بذله المسلمون من جهود ووسائل في سبيل تحقيق مفهوم الحضارة الإسلامية ، وبين أسس هذه الحضارة وثوابتها .

* **ولدحض** شبه بعض المستشرقين الذين﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(التوبة:٣٢)

* **وللإسهام** في استكمال البناء الذي تسعى أقلام الباحثين في مجال الحضارة الإسلامية إلى تحقيقه ؛ إعذارا إلى الله ، وإدراكا للواجب عليها .

وقد حاولت جهدي عرض رؤية عامة أملا في استكمالها للمشاركة الجادة في بناء مشروع النهضة الذي تسعى إليه أمة الإسلام هذه الأيام .

وما أحوج أمتنا في هذه الظروف إلى كل صاحب قلم جاد ، وفكر نقي ، وقلب مخلص ، ونفس طيبة ، ونزعة للخير صادقة ، وفهم صحيح ، أن يشارك في تشييد صرح الحضارة الإسلامية ، بكل ما يملك ، فأمتنا مطالبة بالاستجابة لأمر الحق ، وفي استجابتها لأمر ربها حياة لها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(لأنفال:٢٤) .

وأمتنا مطالبة بالدعوة إلى الخير الذي منحه الله إياها ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: من الآية١١٠) . وقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

وَيَأْمُـرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وهذه الدعوة إلى الخير لابد لها من صورة تميزها ، وهذه الصورة هي الفهم الصحيح الذي عبر عنه القرآن الكريم بالبصيرة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:١٠٨) .

والحضارة الإسلامية تضم بين جوانبها هذه الدعوة المباركة .

أسـأل الله تعـالى أن يوفقنا إلى صادق القول والعمل ، ويحمـي عرى الإسلام ، ويرفع شأنه وشأن رعاته ودعاته . إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

وإذا كان لي من رجاء عند القارئ الكريم ، فهو أن يهدي إلي عيوبي ، أو هفواتي في هذا الكتاب على بريدي الإلكتروني

(abdulbarimt@yahoo.com) أو

(abdulbarimt@hotmail.com)

وأتقدم له من الآن بجزيل الجزاء ، فأقول له : "جزاك الله خيرا" .

وإن كـان من خير أو نفع في هذه السطور ، فأسأل الله تعالى أن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات من ينتفع بذلك الخير .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا ؛؛؛

أبو أيمن

غرة رمضان ١٤٢٦هـ

الفصل الأول
في مفهوم الحضارة الإسلامية وأنواعها وأسسها وسماتها

كلمة " الحضارة " في المعاجم اللغوية :

عرضت معاجم اللغة العربية المدلول اللغوي لكلمة "الحضارة" (بكسر الحاء وفتحها) في عدة معان ، يمكن بعد الاستقراء إيجازها فيما يلي :

* الحضارة تعني : الإقامة في الحضر . وهي عكس البداوة ، التي تعني الإقامة في البادية .

* وتعني أنماط السلوك البشري ؛ قال القطامي الشاعر :

فمن تكن الحضارة أعجبته   فأي رجال بادية ترانا

* وتعني الحضور الذهني .

* وتعني الاستقرار والعمران .

* كما تعني الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر .

وإذا كانت كلمة "الحضارة " في اللغة العربية مأخوذة من الحاضرة وهي ضد البادية ، ففي الإنجليزية تسمى (civilization) وتعود إلى الجذر اللاتيني (civites) وتعني المدنية ، ويرى بعض الباحثين أن المعاجم الأجنبية حصرت كلمة "الحضارة" بين معنيين اثنين ، هما: (المدنية) بمعنى الإقامة في المدن، و(الثقافة) بمعنى طريقة شعب ما ونظرته للحياة .

كلمة " الحضارة " في القرآن الكريم والسنة النبوية:

وردت مفردات تتعلق ببعض المدلولات اللغوية لكلمة "الحضارة" في القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: من الآية١٩٦) . قال القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن في أثناء تفسير هذه الآية : "قال بعض العلماء من كان يجب عليه الجمعة فهو حضري ومن كان أبعد من ذلك فهو بدوي فجعل اللفظة من الحضارة والبداوة " .

وورد عكس المعنى اللغوي للحضارة ، وهو "البداوة" في مثل قوله تعالى: على لسان يوسف عليه السلام : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ (يوسف: من الآية١٠٠) .
فالحضارة هنا ارتبطت بمكان العمران والمجتمع المتماسك المنضبط بقوانين ، وبه سلوكيات خاصة .

وجدير بالذكر أن القرآن الكريم نزل بمكة المكرمة وهي (حاضرة) ، بل أكثر البيئات العربية تحضرا ، فهي أم القرى ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام:٩٢) .

ولو تأملنا مكان الهجرة النبوية "المدينة النبوية" لوجدناه مكانا حضاريا ذا طابع متميز ، وقد زانه الإسلام بمزيد من الاستقرار والبناء والإعمار ، وفجر فيه الطاقات الإبداعية .

كما أن القرآن الكريم فرق بين البدو والحضر في نمط التفكير ، مما يشير إلى معنى آخر من معاني الحضارة . قال تعالى : ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٩٧).
وقال سبحانه : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات:١٤) .

وتشير هذه الآيات وغيرها إلى نمط ما من التفكير والسلوك الاجتماعي لمن ليسوا على جانب من الحضارة .

أما كلمة الحضارة في السنة النبوية ، فقد ورد حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ :" لا يبيع حاضر لباد ". و"الحاضر ساكن الحضر والبادي ساكن البادية". "والمراد به أن يقدم غريب من البادية أو من بلد آخر بمتاع تعم الحاجة إليه

ليبيعه بسعر يومه فيقول له البلدي : اتركه عندي لأبيعه على التدريج بأغلى وهذا سلوك اجتماعي رفضه الشرع الحكيم .

المعنى الاصطلاحي لكلمة " الحضارة " :

تباينت آراء الباحثين قديما وحديثا حول تحديد مصطلح "الحضارة" ، ويرجع السبب في ذلك إلى المنطلق الذي ينطلق منه كل باحث ،فابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٩هـ ، وهو من أوائل من استخدم هذا المصطلح مغبرا عنه بـ"العمران البشري" . جعل الحضارة مرتبطة بالعجم ، باعتبارهم سكان الحضر ، وأهل الصناعات ، والمبرزون في العلوم ، وذكر أن الحضارة هي: "غاية العمران و نهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده". فالحضارة عند ابن خلدون تعني غاية المبالغة في التحضر و نهاية عمر الترف المادي المؤذن بعدها بالانحطاط .

ويرى القنوجي في كتابه "أبجد العلوم" أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية " ذكر أن سبب بعد العرب البدو عن صناعة الخط وتجويده " لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع " التي تميز بها أهل الحضر ، " لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول ".

كما ذكر أن العلم وتعليمه جزء من الحضارة ، لأنه من جملة الصناعات . ورجع القنوجي ليؤكد أن الحضارة ترتبط بالذكاء والفطنة والمهارة في الصنائع والمهن ، ودلل على ذلك بوقائع تاريخية مختلفة ، غير أنه أكد على موضوع مهم هو أن هذا لا يغني أن البدو يكونون بعيدين عن الحضارة لطبيعتهم وجبلتهم ، بل لبعدهم عن الاستقرار والعمران والعلم ؛ لأن "العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة ، والسبب في ذلك أن تعليم العلم من جملة الصنائع ، وأن الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة ؛ لأنه أمر زائد على المعاش ، فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في

خاصية الإنسان ، وهي العلوم والصنائع ، ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو ، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة، شأن الصنائع كلها ، واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة : لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاقوا المتأخرين ، ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها ، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام" .

وإذا انتقلنا إلى الباحثين المعاصرين نجد رفاعة الطهطاوي – مثلا – يرى أن الحضارة تعني الإقامة في الحضر ، حيث المدنية ، أو التمدن ، وللتمدن أصلان : (معنوي) وهو الأخلاقي أو الديني ، و(مادي) وهو التقدم المادي .

ويرى نصر عارف في كتابه عن (الحضارة ، الثقافة، المدنية) أن الحضارة "جملة الظواهر الاجتماعية ذات الطابع المادي والعلمي والفني والتقني الموجودة في المجتمع والتي تمثل مرحلة راقية في التطور الإنساني" .

ويرى مالك بن نبي في كتابه(مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) أن "الحضارة هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تنتج لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده – في كل طور من أطوار وجوده ، منذ الطفولة إلى الشيخوخة – المساعدة الضرورية له في هذا التطور ، أو ذاك من أطوار نموه " .

ويرى حسين مؤنس أن "الحضارة في مفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية" .

وتـــتفاوت التعـــريفات عـــند الباحثين الغربيين حسب الخلفيات المعرفية والتاريخية والعقائدية في النظر إلى "الحضارة" ، وبشكل عام هناك من وسع مفهوم الحـــضارة ليـــشمل كل أبعاد التقدم ، وهناك من جعله قاصرا على نواحي التقدم المـــادي. ، فديورانت في (قصة الحضارة) يرى أن :"الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنـــسان علـــى الـــزيادة مـــن إنتاجه الثقافي، وتتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون ، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق". فمعنى الحضارة عند ديورانت هو كونها حضارة حادثة على الإنتاجية بصرف النظر عن مستواها.

أمـــا تايلور فنجده لا يحدّ مستوى الحضارة بحد سوى التقدم اللامتناهي. حـــيث يقول في تعريفها :"هي درجه من التقدم الثقافي تكون فيها الفنون والعلوم والحـــياة السياسية في درجة متقدمة" . وألبرت شفتر يرى أن الحضارة "هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء " .

ويمكن القول : إن مصطلح الحضارة تركز عند الباحثين في ارتباطه بالمكان المستقر المعمور ، وبالأشخاص الذين يعيشون فيه ، وتربطهم علاقات خاصة ، وبما يقـــوم بـــه هـــؤلاء الأشخاص من أعمال وسلوكيات ومهن فالحضارة بهذا تنتظم الأفراد الذين يعمرون الأرض وفق منهج معين ، ويتحلون بخصال معينة .

مصطلح "الحضارة الإسلامية" :

مـــن خـــلال النظر إلى المدلول اللغوي وما ورد في القرآن الكريم والسنة النـــبوية والتـــراث الإسلامي والمدلول الاصطلاحي للحضارة بصفة عامة ، يمكن القـــول : إن الحضارة الإسلامية هي مجموع ما أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ من أحكام عقدية أو تشريعية أو سلوكية ، وما اقتبسه البشر من غيرهم، أو أبدعوه من أمور مادية أو عقلية ؛ بغرض إعمار الأرض وتحقيق الأمن والعدل فيها . وهذا هو الجمع بين (المدنية) و(الثقافة) .

وإذا كانت "الحضارة" تجمع بين (المدنية) بجوانبها المادية و(الثقافة) بجوانبها الفكرية والروحية ، فالحضارة الإسلامية تأخذ بعدا آخر ، فوق هذا البعد التوفيقي بين المصطلحين السابقين ؛ إذ إن خلاصة هذين المصطلحين تعني إعمار الأرض وفق ضوابط وسلوكيات ، قد يصنعها البشر، وتتغير بتغير الزمان والمكان ، أما الحضارة الإسلامية فتحدد تلك الضوابط في العلاقات بين الإنسان والكون ، والحياة ، وخالقهما سبحانه ، في توازن بين روح هذا الإنسان وجسده وعقله .

إن الحضارة الإسلامية منحة ربانية لبني البشر تفيدهم في دنياهم وأخراهم ، فهي إذن تجمع بين المدنية والثقافة ، وتزيد عليهما تقديم منهج حياة دنيوي وأخروي ، يشبع رغبات الإنسان الروحية والعقلية والجسدية، ويدفعه للإفادة من كل عناصر الكون المحيطة به ، والاقتباس منها ، والإبداع في فلكها ؛ ليحقق الاستخلاف في الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(النور:٥٥)، ثم ليصل بهذا الإنسان إلى الغاية القصوى من خلقه ، وهي عبادة الله الخالق العظيم ؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات:٥٦) .

وبهذا يمكن القول : إن الحضارة الإسلامية قدمت لبني البشر صورة متكاملة متوازنة شاملة تسهم في تحقيق الاستخلاف في الأرض وإعمارها وفق سنن الله تعالى وأوامره العليا . فما أنواع هذه الحضارة وما سماتها ؟

هذا ما تحاول الصفحات التالية إلقاء الضوء عليه .

أنواع الحضارة الإسلامية

من خلال التعريف السابق الذي ارتضيناه للحضارة الإسلامية ، المرتبط بإعمار الأرض وفق منهج السماء ، يمكن تحديد ثلاثة أنواع للحضارة الإسلامية ، على النحو التالي :

أولا : الحضارة الإسلامية الأصيلة :

وهي التي جاء بها الدين الإسلامي و لم يسبق إليها ، **مثل الشريعة** بشقيها: **العبادات** (كالصلاة والصوم والزكاة والحج) . **والمعاملات** (كالسياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية) . **ومثل الأخلاق** (كالأمانة والصدق والرحمة ...) . ونمثل لذلك بمثالين هما (المواريث ، والشورى) .

ففي **المواريث** التي وضع القرآن الكريم **دقائقها** ، لم يُسبق هذا الدين إلى مثل هذا التشريع الذي يضبط علاقات الناس بذويهم ، ومن عجيب أن كل إنسان على وجه الأرض يستطيع ترجمة آيات المواريث ، بل جميع آيات الأحكام بسهولة ويسر إلى أي لغة ينطق بها البشر .

إن قول الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (النساء:١٢) .

فهذه الآية وغيرها من آيات المواريث يسهل ترجمتها لأي لغة باللفظ لا بالمعنى ، بل كل آيات الأحكام في القرآن الكريم يمكن ترجمتها حرفيا، أما آيات سورة العاديات – مثلا – ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً . فَالْمُغِيرَاتِ

صُبْحاً . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾(العاديات١ : ٥). هذه الآيات وأمثالها ممـا لا تعد من آيات الأحكام التشريعية يصعب ترجمتها لفظا ، بل يحوم المترجمون حول المعنى ، دون لفظه ، وهذا من معجزات القرآن الكريم ، فالمسلم في أي مكان في الأرض ، مهمـا كانت لغته ، يحتاج إلى آيات الأحكام بشكل واضح وصريح ومباشـر ، وهـذا أمر ميسور في الترجمة، ويهمه المعنى الإجمالي في أمور الترغيب والتـرهيب ، وقـصص القـرآن ؛ لهذا كانت ترجمتها إلى حد كبير تحتاج جهدا مضاعفا للوصول إلى المعنى المقصود .

وفي موضـوع **الشورى** ، فقد جاء به الإسلام مجملا ،في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (الـشورى:٣٨) وفي قوله سبحانه : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران: من الآية١٥٩) .

وترك الإسلام تفصيل الشورى من حيث الكيفية لطبيعة الزمان والمكان ، ولـذلك نجـد على سبيل المثال تطبيق هذا المبدأ في منصب الخليفة في عهد الخلفاء الراشـدين اخـتلف من عهد إلى عهد ، ففي حين اجتمع المهاجرون والأنصار ، واخـتاروا الخلـيفة بعـد اجتماع السقيفة من المهاجرين ﷺ ، جاء أبو بكر ﷺ واستـشار الصحابة ﷺ في شخصية عمر ﷺ ومدى صلاحيته لقيادة الدولة ، ولما أدرك عمـر ﷺ دنو أجله جمع الشورى في ستة نفر من الصحابة ﷺ توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راض ، وهكذا .

فالشورى من المبادئ الأصيلة في الإسلام ، حيث لم يُسبق الإسلام إليها . وقد أخذ الغرب مضمون هذا المبدأ ، دون روحه ، ومع هذا فقد كان من أسباب تقدمهم في حياتهم السياسية .

ثانيا : الحضارة الإسلامية المقتبسة :

وهـــذا النوع هو ما اقتبسه المسلمون عن غيرهم،ممن سبقهم ، ثم أحيوها وطـــوروها ،وأضافوا إليها ،وابتكروا عليها ثم صبغوها بالجانب الأخلاقي المستمد من الحضارة الأصيلة .

وهـــي كذلك ما اقتبسه المسلمون ولا يزالون من علوم وتقنيات مادية من الـــشرق أو الغـــرب ثم طوعـــوا ذلك لخدمة الإنسانية ، وهذا النوع يسميه بعض العلمـــاء (حـــضارة المسلمين) العقلية أو التجريبية ، لكن الحقيقة أن المسلمين لم يـــنطلقوا في هذه الحضارة إلا بالأمر الإلهي المتكرر بالنظر في هذا الكون المنظور ، بعد ارتباطهم بالكون المقروء ، وهو كتاب الله تعالى، قال عز وجل : ﴿ قُلْ سِيرُوا فـــي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت:٢٠)

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيـــاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران : ١٩٠ :١٩١)

وآيات القرآن الكريم حافلة بالعلوم الكونية، أو بالدعوة إليها ، ومن فضل الله تعالى أن نشأ في هذا العصر الحديث هيئة تسمى هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تابعة لرابطة العالم الإسلامي .

ومـــن مظاهـــر الحـــضارة المقتبسة : ما اقتبسه المسلمون في مجال الطب والكيمـــياء والفيزياء والرياضيات والفلك ، وغيرها ، حيث ترجموا كتب الأقدمين ودرســـوها دراسة متأنية ، ثم طبقوها ، واكتشفوا أخطاءها ، وصوبوها ، وزادوا عليها وطوروها ، وسنفرد لهذا النوع فصلا كاملا بالدراسة لأهميته .

ثالثا : الحضارة الإسلامية الإبداعية(المادية والفكرية):

وهـــذا النوع يقصد به ما قدمه المسلمون من فنون ومعارف لم يسبقوا إلـيها ، وما صنعته أيديهم من أعمال تدل على الحذق والذكاء والفطنة . فالعمارة الإسلامية والأشكال الزخرفية الأنيقة تعد حضارة إبداعية مادية ، والإنتاج الفكري في العلوم الإنسانية يعد إبداعا فكريا .

ويرتبط بهذا الإبداع ما يعرف بحضارة الدول، وهو كل ما قامت به الدول من مؤسسات معمارية، تخدم البشر ، وتعينهم على استكمال إعمار الأرض.

ففـي حضارة الدول تظهر جهود دولة ما في الميادين المختلفة ففي الميدان الاقتصادي تظهر الجهود في الزراعة والتجارة والصناعة ، وفي المجال الفكري، تبدو الجهـود المـرتبطة بالتعليم وأدواته ووسائله ومؤسساته ، وفي الميدان العسكري ، تظهـر أعمـال الجيش ، وأسلحته ومعداته ، وفي الميدان السياسي تتحدد كيفية العلاقات الخارجية .

وهـذا الـنوع مـن الحضارة يرتبط بالتاريخ أكثر من ارتباطه بالحضارة الإسلامية .

أسس الحضارة الإسلامية وسماتها

قامت الحضارة الإسلامية على قاعدة بالغة الأهمية وهي العلم ، فقد كان أول اتصال بين السماء والأرض على لسان جبريل عليه السلام إلى الرسول محمد ﷺ هو قوله تعالى : (اقرأ) ، وهي أول دعوة للعلم ، تلتها دعوات للعمل ، ولقد فهم السلف الصالح رضي الله عنهم من قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد:١٩) فهموا الدعوة للعلم أولا ثم يليه العمل .

ولقد كانت الآيات الأولى التي نزلت على نبي هذه الأمة ﷺ ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ بمثابة "إعلان عن تاريخ ميلاد مرحلة من مراحل تطور الإنسان ، وبداية فتح في مجال العلم ، وتدل دلالة لا تقبل الشك على وجوب العلم وضرورته للإنسان ؛ لما فيه من صلاح حال الدنيا والدين "، يقول النبي ﷺ :"مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة " ، ويقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : مر رسول الله ﷺ بمجلسين في مسجده ، فقال :" كلاهما خير ، وأحدهما أفضل من صاحبه ، أما هؤلاء (أهل مجلس العبادة و الذكر) فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء (أهل مجلس العلم) فيتعلمون الفقه والعلم ، ويعلمون الجاهل فهم أفضل وإنما بعثت معلماً" ثم جلس بينهم.

إن العلم ضروري لأي حضارة أو نهضة — وقد أدت الحضارة الإسلامية بفتوحاتها العلمية إلى الازدهار الذي بلغته الإنسانية ، فقد كان للإنجازات العلمية في مختلف فروع العلم والمعرفة أثرها في إضفاء الصبغة العقلانية التي تميزت بها الحضارة الإسلامية .

وجاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على فضل العلم والعلماء، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف: من الآية٣٢) ،وقال سبحانه : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(الزمر: من الآية٩) .

والعلم هو سبب الإيمان وسبيل التصديق بالدين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: من الآية٢٨). وقال ﷺ :"من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً من طرق الجنة ، فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر".

والعلم في الحضارة الإسلام "ليس فقط علوم الشرع والدين بل يشمل العلوم الدنيوية التي ترقى بالإنسان "، قال رسول الله ﷺ :" ما كان من أمر دينكم فإلي ، وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به ".

"وقد برع المسلمون في شتى أنواع العلوم وتجلت عبقريتهم في علوم الطب والفلك والرياضيات ، والكيمياء والبصريات ، وغيرها ، وتطورت هذه العلوم بفضل علماء المسلمين ، وقد ازدهرت العلوم اليوم وبلغ الإنسان مرحلة من العلم في مختلف المجالات حتى وصل الفضاء ، بفضل من الله ووحيه، وعلى الرغم من كل ذلك يظل حظ الإنسان من العلم قليلاً،قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥). وسيفتح الله على الإنسان آفاق العلم والمعرفة حتى يرث الله الأرض ومن عليها،قال تعالى:﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:٥٣).

"إن الحضارة التي نشأت وتكونت مع هجرة الرسول محمد ﷺ إلى المدينة وتأسيس الدولة الإسلامية الأولى قد قامت على أساس مهم جدا وهو بناء الإنسان وصياغته صياغة إسلامية في جوانبه المختلفة سواء العقلية أو الروحية أو البدنية. وعندما تحققت هذه الصياغة الإسلامية للإنسان بدأت الثمار تتوالى من فتوحات وإنجازات في مجالات الحضارة المختلفة من علمية وثقافية وأدبية وفنية وغيرها من المجالات. إن ما يميز الدين الإسلامي" .

"إنه دين شامل لا يقف عند البعد الديني الروحي فقط كما أنه لا يغفل البعد المادي ولا يهمله ولكنه يجمع بين المادة والروح بقدر محدد يمكّن الإنسان من الحياة ويحقق أهدافه ويعيش في سعادة، كما أن الدين الإسلامي وهو أساس هذه الحضارة لا يقوم على التعبد الفردي الخالص -على أهميته- مهما بلغت درجة تقواه وإنما يقوم على تحقيق كافة فرائضه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها" .

"والحضارة الإسلامية تتميز عن باقي الحضارات قديما وحديثا بأنها حضارة قامت على أساس الدين الشامل، فالحضارة الصينية لم تكن حضارة كونفوشيوسية والحضارة اليابانية لم تكن بوذية وكذلك الحضارة الرومانية والغربية الحديثة لم تقم على تعاليم الديانة المسيحية ولكن الحضارة الإسلامية تختلف فلو لم تكن هناك دعوة الإسلام ما قامت الحضارة الإسلامية. وتبعاً لذلك فإن الحضارة الإسلامية هي حضارة شاملة متكاملة قد نبغت وتفوقت وأبدعت في مختلف مناحي الحياة. وهذا قلما نجده في الحضارات الأخرى فنجد معظمها قد تفوق في مجال من المجالات أمّا مجال الطب أو مجال الفلك أو مجال الفلسفة أو مجال الفنون. وكما أخذت الحضارة الإسلامية الشمول من الدين الإسلامي فإنها قد أخذت أيضا -فيما أخذت- الوسطية لذلك فالحضارة الإسلامية حضارة وسط.

و"أفضل العلمِ العلمُ بالله ورسوله وأمور دينه". ومن هنا كان أول أساس من أسس الحضارة الإسلامية هو العقيدة .

الأساس الأول : العقيدة :

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد التي تفرد الله تعالى بالعبادة والطاعة ، وحرص على تأكيد وترسيخ العقيدة ، بتوحيد التوجه إلى الله تعالى (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد) سورة الإخلاص . حيث نفى بذلك أن يشارك أحد رب العالمين في الألوهية والعبادة كما نفى ما قاله اليهود والنصارى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠) .

وتتضح أهمية العقيدة كأساس من أسس الحضارة الإسلامية في كونها جوهر الدين الإسلامي وأساسه ، وترتبط بالباطن ، أو بالروح ، التي تمثل العنصر المخفي من الإنسان ، فبنقاء الباطن وضبطه ينضبط العنصر الظاهر وهو الجسد . فالروح إنما نسكن في الجسد ، وإنما تبدو تصرفاتها وتأثيراتها عليه وبوساطته .

"وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الإنسان إنسانا بجوهره الروحي الداخلي الخفي لا بشكله الجسدي الخارجي . فالروح هي محل الإدراك والإيمان والتصورات والإرادات والمشاعر. والإنسان إنما يتحرك ويتصرف بما يعتقد، حقا كان أو باطلا ، وبما يتصور واقعا كان أم وهما".

ومن هنا فإن صلاح الإنسان أو فساده السلوكي راجع بالضرورة إلى صلاح معتقداته وتصوراته أو فسادها . وهذا يبين أهمية العقيدة في حياة الإنسان . قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الحج: ٥٤).

فتأثير هذا العلم معتمد على قبوله أو رفضه لا على مجرد اكتسابه: ﴿ وَإِذَا مَـا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانـاً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة:١٢٤ : ١٢٥) . ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: من الآية١٠١).

"فإذا ما عرف الإنسان ربه وآمن به تفجرت ينابيع الخير في قلبه ثم فاضت علـى جـوارحه بمقدار علمه وقوة إيمانه. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى كما جعل الـروح جوهـر الإنسان، فقد جعل الإيمان به منبع كل خير فيه. ولذلك كانت الدعـوة إليه والتذكير به مفتاح كل دعوة إلى فكر قويم وسلوك مستقيم، وكانت الدواء الذي لا غناء عنه لكل أنواع الانحرافات السلوكية. ولذلك كانت البداية به في جهـود الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لإصلاح المجتمعات التي بعثوا إليها. يدعـو أحدهم قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبودية ثم يدعوهم بعد ذلك إلى تفاصيل الـشريعة وإلى تـرك ما هم عليه من أنواع الانحرافات السلوكية، خلقية كانت أم اقتـصادية أم سياسـية أم اجتماعـية. فالإيمان هو الذي يهيئ النفوس لعبادة الله وينشط الجوارح لها

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت للعبادة الأعضاء

وهـو الذي يهيئها لقبول تفاصيل الشريعة. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: " لقد نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام . ولو نزل لا تشربوا الخمر ، لقالوا لا نـدع الخمـر أبدا . ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعب: ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (القمر: ٤٦) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده "[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن .

والعقيدة هي السبب الأساس لحل المشكلات الاقتصادية والسياسية والخلقية ، وغيرها ، بل بالعقيدة الصحيحة تعمر الأرض ويكثر الخير . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ) (هود: ٢٥ : ٢٦) .

ثم دعا نوح عليه السلام قومه : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ (نوح : ١٠ : ١٢) .

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود:٥٠) . ثم دعاهم قائلا:﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود:٥٢) .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (هود:٦١) .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (هود: ٨٤ : ٨٦) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(لأعراف:٩٦).﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٦٦) .

وأهــــم من هذا كله فإن عقيدة التوحيد هي سبب السعادة النفسية ، قال تعــالى : ﴿الَّـــذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الــرعد:٢٨) . بل هي سبب السعادة الأبدية لأنها السبب الأساس لدخول الجنة وللـــنجاة مــــن النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَـــنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾(النساء:٤٨) . ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(الشعراء: ٨٨ : ٨٩) .

ولقـــد تمثلت العقيدة الإسلامية في قوله تعالى:﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِـــنْ رَبِّـــهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَاوَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:٢٨٥)

الأساس الثاني : الشريعة :

(الــشَّرِيعَة) [٢]و(الــشِّرْعَة): مــا سنَّ الله من الدِّين وأَمَرَ به؛ كالصوم، والصلاة، والحج، والزكاة، وسائر أعمال البرِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثـــية:١٨) . وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (المائدة: من الآية٤٨) . رُوي عن ابن عـــباس ﷺ في تفسير الآية ، قال: "الشرعة: ما ورد في القرآن، والمنهاج: ما ورد في السنة"[٣].

---

(٢) (الـــشريعة)في أصل اللغة: مورد الشاربةُ الماءَ،ثم استعير لكل طريقة موضوعة بوضع إلهي ثابت،واشتق منه الــشِّرْعة في الدين،والـــشريعة،قال تعالى:﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾(المائدة: من الآية٤٨). وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا(الجاثـــية:من الآية١٨).ومن الباب: أشْرَعتُ الرمح نحوه إشـــراعًا،والإبل الشروع: التي شَرَعت وروِيت، ويقال: أشرعتُ طريقًا،إذا أنفذته وفتحته،وشرعت الإبل،إذا أمكنتها من الشريعة،أي:من مورد شرب الماء .

(٣) ورُوي عنه في معنى الآية أيضًا، قال: "شرعة ومنهاجًا: سبيلاً وسُنَّة". وقال قتادة : "شرعة ومنهاجًا: الدِّين واحـــد والشريعة مختلفة"،وقيل في تفسيره:(الشِّرْعَةُ): الدِّين،و(المنهاجُ): الطريقُ؛ وقيل: (الشرعة) و(المنهاج) جمـــيعًا: الطريق،والطـــريقُ ههـــنا: الدِّينُ؛ وقال بعضهم: (شِرْعَةً) معناها: ابْتداءُ الطريق، و(المنهاج): الطريق المستقيم والواضح .

إن شـــريعة الإسلام منهج كامل للحياة . وهذا المنهج متضمن في القرآن الكريم ، والسنة النبوية، وأقوال الصحابة ﷺ ، وآراء الفقهاء. وهو منهج يجمع بين تحديـــد علاقة الإنسان بربه التي هي أسمى أنواع العلاقات ، والتي تظهر في كيفية تحقيق قوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) ، وبـــين علاقته بالكون من حوله وفق ما طلب من الإنسان من تعمير للأرض ، فهو يحكم السلوك في جميع النواحي الاجتماعية والسياسية فضلا عن الدينية .

والشريعة الإسلامية بشقيها (العبادات والمعاملات) تمثل الأساس الثاني من أسس الحضارة الإسلامية ، فالمسلم لا ينطلق في الحياة ، ولا يحدد علاقاته بما حوله ومن حوله ، بل بخالقه إلا وفق منهج رسمته له الشريعة الإسلامية الغراء .

وإذا كانـــت العـــبادات راحة للنفوس وصحة للأبدان ، فهي كذلك من دلائـــل الانـــضباط بالمـــنهج الرباني ، وكذلك المعاملات تسهم في تقوية الروابط وتحقـــيق الاســـتقرار والإعمار في الأرض ،والإنسان المسلم حين ينضبط بالشريعة الإسلامية يحقق الأمرين معا ، يحقق إعمار الأرض ، ويحقق الحكمة من خلقه وهي العبادة .

الأساس الثالث : الأخلاق :

تمثل "الأخلاق" أحد الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية ، والقيم الأخلاقـــية المطلـــوبة ليست المثالية التي تعتبر الإنسان ملاكاً لا يخطئ، وهي أيضاً ليست الإفراط في الواقعية والتي تعتبر الإنسان كالحيوان وتبرر له من السلوك ما لا يلـــيق به، ولكنها القيم الأخلاقية التي تتسم بالوسطية ، حيث تتعامل مع الإنسان بجوانـــبه المختلفة من عقل وروح وجسد ، وتنمي فيه حب الفضائل وتحثه عليها، ومـــن أبرز هذه الأخلاق : العدل ، والتعاون ، والصدق والأمانة والوفاء والصبر والعفاف والحياء والشجاعة ، وغيرها من القيم الضرورية والمهمة في حياة الإنسان

الــتي تــتحقق له السعادة في الدنيا، قال رسول الله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وأي أمة بلا خلق أمة ضائعة .

ونقف وقفة موجزة مع بعض هذه الأخلاق .

العدل من الأسس الأخلاقية للحضارة الإسلامية :

العــدل اســم مــن أسمــاء الله عز وجل . **ومقصد** من مقاصد الشريعة الإسلامية. والعدل هو الحق وتجاوزه هو الظلم . والعدل فريضة ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(النحل: ٩٠) .

والعــدل فريــضة على الكافة حكاماً ومحكومين ، قال سبحانه : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(النساء: من الآية٥٨). فبالعدل تستقيم الأمور ، وقد أمر الإسلام به في كل الأمور حتى بين الأهل ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾(النساء:١٣٥). وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٨) .

وإذا كــان الله سبحانه وتعالى هو العدل المطلق فقد حرم على نفسه الظلم ونهى عنه – يقول تعالى في الحديث القدسي " إني حرمت الظلم على نفسي وعلى عبادي ألا فلا تظالموا " ولقد جاء القرآن الكريم حافلاً بالآيات الناهية عن الظلم .

وإذا كان العدل هو العاصم من كل شر ، وهو ضرورة إنسانية ، وفريضة قرآنية وسنة نبوية ومعيار حضارة اجتماعية ، فأي حضارة قدسته ؟ وأي حضارة أعلته ووضعته في هذه المكانة؟. إنها الحضارة الإسلامية .

والعــدل الــذي جعلته الحضارة الإسلامية من أسسها "ليس فقط العدل الداخلي بين أفراد المجتمع - لو تحقق- بل العدل في كل التصرفات والمواقف ، فما نراه الآن من استخدام للمعايير المزدوجة في التعامل للحضارة الغربية هو الظلم بعينه ويعتبر من نقاط الضعف في تلك الحضارة " .

التعاون من الأسس الأخلاقية للحضارة الإسلامية:

لقــد وضــعت الحضارة الإسلامية مبدأ "التعاون" على الخير كأساس من أســسها منطلقة من قوله سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْــأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾(المائدة: من الآية٢) . فالبر الذي قصدته الشريعة الإسلامية كل خير مطلق يسهم في تعمير الأرض ، وهذا ما يخالف أي حضارة أخرى .

"وفي مجــال التعاون تركز الحضارة الإسلامية على التعاون الحضاري بديلا عــن الــصراعات الــتي تؤجج التنازع بين الدول والمجتمعات وكذلك الديانات المخــتلفة. وتقــوم فكــرة الــتعاون الحضاري على أساس تبادل العلوم والأفكار الحــضارية بين الحضارات المختلفة للوصول لسعادة البشرية ، فالبشرية جميعها في حاجة ماسة إلى أن تتعاون حضاريا بمعنى أن تستفيد من بعضها في بعض مكونات الحضارة التي تسهم في إعمار الأرض" .

والحــضارة الإسلامية حين أطلقت فكرة التعاون على الخير كان من أجل تحقــيق الخــير للبشرية وليس لتحقيق مصلحة خاصة ، فالخير كمصطلح هو أسمى وأشمــل وأعــم ويعطي انطباعا فيه تواد وحب الآخر ، أما مصطلح المصلحة ففيه قــصور ودونية وذاتية . كما أن الخير وتحقيقه يمثل شعارا لنا نحن المسلمين وهناك الكــثير من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية الشريفة تؤكد على هذا المعنى ومنها قــول الرسول ﷺ وتأكيده على أن إيمان الفرد لا يتحقق إلا بأن يحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه .

سمات الحضارة الإسلامية

اتسمت الحضارة الإسلامية بسمات عديدة جعلتها تفوق كل حضارات الأرض ، ولعل أبرز سمة ميزت الحضارة الإسلامية هي الربانية ، ثم تلتها سمات أخرى من أهمها : الشمول ، الوسطية والتوازن، والحرية، والقوة المرتبطة بالعلم . وستحاول السطور التالية الحديث عن بعض هذه السمات .

ربانية الحضارة الإسلامية :

الربانية مصدر صناعي منسوب إلى الرب ، زيدت فيه الألف والنون على غير قياس ، وهي مأخوذة من الفعل (رب) الذي يحمل هدة معان ، منها: رب القوم : أي ساسهم ، وكان فوقهم ، ورب الشيء: ملكه وجمعه ، والرب : السيد المالك ، ورب الأمر: أصلحه ، والرب : المصلح ، ورب النعمة : زادها ، ورب الدهن(الطيب) : طيبه وأجاده ، والرباني : الحبر المتأله العارف بالله ، والرباني : الذي له غاية محددة متصلة بالرب تعالى ، ومصدر غايته ، والمنهج الذي يحقق به هذه الغاية متصل بالرب كذلك .

ومن هنا كانت الحضارة الإسلامية مرتبطة بالرب سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه مصدرها ، وهو غايتها ، ومنه سبحانه تستمد منهجها .

وللربانية حديث طويل ، ليس هنا مجال تفصيله ، ولكن يكفي ذلك الأمر الرباني ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: من الآية٧٩) . فالربانية تدعوا إلى العلم الموصول برب هذا الكون ومليكه ، ليكون ذلك سببا في الترقي .

إن رياسة الناس وسياستهم ، وجمعهم على أمر واحد ، وامتلاك أمرهم ، وإصلاح شؤونهم ، وتطييب نفوسهم ، وتزويد عقولهم بالمعارف ، وتعريفهم بخالقهم العليم سبحانه . كل هذا هو عين الربانية ، وهو من سمات الحضارة الإسلامية .

شمولية الحضارة الإسلامية وتوازنها :

تتميز الحضارة الإسلامية بشمولها وتوازنها حتى تستطيع أن تقوم بدورها ووظيفتها من وسطية تمكنها من الشهادة الصحيحة الصادقة على باقي الأمم والحضارات، والشمولية المطلوبة تعني أن الحضارة الوسط تهتم بكافة الجوانب المادية والروحية ، العلمية والفنية، وكما أنه يهتم بالفرد فإنه يهتم بالجماعة، وكما يهتم بالواقعية فإنه يهتم بالمثالية. هذا هو الشمول الذي تنادي به الحضارة الإسلامية كما انه هو الشمول الذي يجب أن يتحقق لعودة الحضارة الوسط، والشمول وحده لا يكفي بل يجب أن يتحلى هذا الشمول بالتوازن، فالتوازن أيضا من شروط تحقيق الشهادة "واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان" فيجب التوازن في التعامل بين المادية والروحية والتوازن يعني عدم الإفراط أو التفريط والتوازن ضد التطرف بأشكاله المختلفة، والتوازن في العبادات أيضا مطلوب، لذلك فالشمول المتوازن منطلق وأساس مهم من أسس الحضارة الوسط.

لقد جاء الإسلام وهو الخبير بعلل النفس البشرية المدرك لنزعاتها ، البصير بكيفية إعادتها إلى الاتزان والعقلانية فقادها إلى شاطئ الأمان بإحياء الجانب الروحي الذي كان كامناً في أعماقها محاصراً بنوازع الشر ودوافع الغرائز الجامحة .

كما أن الإسلام وازن بين المادة والروح ، فهذب الطباع القاسية ، وطهر القلوب الدنسة ، وارتفع بفكر الإنسان وعقله ، داعياً إلى القيم الفاضلة والمبادئ الراقية العظيمة ، لا إفراط في الحريات وإشباع الرغبات ، ولا رهبانية وانقطاع للعبادة وإهمال للدنيا . قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران: من الآية١١٠) . ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (الإسراء:٢٩) .

وسطية الحضارة الإسلامية :

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة:١٤٣) .

وقال ﷺ: "يُدعَى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بَلَّغتَ؟ فيقول: نعم، فُيدعَى قومه، فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ،قال: فذلك قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ قال: (والوسط العدل، فتُدعَون، فتشهدوا له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم) رواه البخاري.

وتبدو وسطية الإسلام واضحة وظاهرة في منهاجه العدل ، فالمنهاج الإسلامي القائم على الإيمان بالله، ووحدانيته، وتتريهه، وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة هو وحده الذي يضمن للبشر أن يتخلصوا من عبادة غير الله عز وجل ، وهو المنهاج الوسط الذي لا إفراط فيه، ولا تفريط ، ولا غلو ، ولا تقصير، فلم تتخذ الأمة الإسلامية السائرة على صراط الله المستقيم، أنداداً لله سبحانه، و لم يصفوا الله بأوصاف لا تليق به، كما فعلت اليهود، حين وصفوه بالفقر، وبأن يده مغلولة ، و لم تضل كما ضلت النصارى، الذين شبهوا المخلوق بالخالق، وأضفوا على عيسى عليه السلام خصائص الألوهية، فغلوا فيه، وجعلوه شريكاً لله .

إن منهاج الأمة الإسلامية، هو المنهاج الوسط المعتدل في أنبياء الله ورسله، إذ آمنوا بهم جميعاً، و لم يفرقوا بين أحد منهم ، أو ينقصوه ، أو يقتلوا أنبياء الله، كما فعلت اليهود.

قال تعالى في محكم التتريل : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَأَرْسَلْنَا

إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾ (المائدة:٧٠)

ولم يغلـــوا في أحد منهم ، كما فعلت النصارى مع عيسى بن مريم عليه السلام وإنما قدروهم حق قدرهم .

ووسطية أهل الإسلام المستقيمين على هديه تبدو في الاعتدال والتوازن بين مطالـــب الدنـــيا والنظرة إليها ، ومطالب الآخرة والعمل لها ، والأخذ بالأسباب المؤدية إلى ذلك دون إفراط أو تفريط، ودون إسراف أو تقتير، قال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِـيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧) .

إن الإســـلام وسط بين من غلا في أمر الدنيا ولم يهتم بالآخرة، وبين من غـــلا في أمـــر الآخـــرة، ونظر إلى الدنيا نظرة ازدراء وابتعاد، وهكذا التوازن بين مطالـــب البدن ومطالب القلب. فقد بلغ الرسولَ ﷺ "أن ثلاثة رهط، أراد أحدهم أن يصلي الليل أبداً، وأراد ثانيهم أن يصوم الدهر ولا يفطر، وعزم الثالث على أن يعتـــزل النساء، فقال: أنتم قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم له، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" متفق عليه.

ومـــن ذلـــك الاعتدال في تناول الطيبات. قال تعالى:﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَـــتَكُمْ عِـــنْدَ كُـــلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (لأعراف:٣١)

إن الوسطية القرآنية تتجلى في منهاج التشريع الإسلامي كله، ويبدو ذلك واضحاً في تنظيم المال والملكية، والاعتراف بملكية الفرد للمال، إلى جانب أنه يملكه اســـتخلافاً من اللـــه عز وجل لكي يؤدي رسالة في الحياة. قال سبحانه: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد: من الآية٧) .

كمـــا يبدو المنهاج الوسط ، في الإقرار في المال، إلى جانب الاعتراف بأن للجماعـــة فـــيه حقاً مقدراً ومحدداً، يخصص لفقراء الجماعة، وهو الزكاة ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:١٩) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج : ٢٤ :٢٥) .

وقد أضيف المال في القرآن الكريم إلى صاحبه، كما في الآيتين السابقتين، وأضيف المال كله وملك السماوات والأرض وما فيهن إلى الله عز وجل، قال تعالى ﴿ وآتوهم من مال اللـــه الذي آتاكم﴾ .

وهـــذا المنهاج في النظر إلى المال، والهدف منه، وكيفية اكتسابه، وكيفية إنفاقه، هو المنهاج العدل، في تنظيم أمر مهم وجوهري في حياة الإنسان، وهو يتفق مـــع فطـــرة الإنسان وغريزته في حب التملك والاستئثار، ويوازن بينها وبين حق المجـــتمع في مـــال اللـــه، وأن المال-حتى لو كان مملوكاً للفرد- فيه حقوق لله أو للجماعة.

إن تشريع الله في العبادة، تشريع متوسط معتدل ، بين الإفراط والتفريط ، والغلـــو والتقصير : ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: من الآية١١٠) .

إن وســـطية التشريع الإسلامي، تعني أنه الأكمل والأقوم والأعدل لحياة الإنسان بالمعنى القرآني للوسطية ، فتشريع العبادات في هيئاتها ومقاديرها وتكاليفها ومراتب وجوبها على المكلف، تتفق مع الأعدل والأقوم، وفطرة الإنسان في الجمع بين الدنيا والآخرة.

الحرية في الحضارة الإسلامية:

إن أهـــم مـــا يميـــز الإنسان – الذي يعتبر الأداة الأساسية لتحقيق التقدم والتحضر– هو ما حباه الله به من عقل ،لذلك فإن توظيف هذا العقل واستخدامه بكفـــاءة هـــو الطريق الأمثل لكي يعيش الإنسان سعيدا وناجحا في هذه الحياة ،

والعقـــل مـــناط الفكر والتفكير والاختيار ، بداية من الاختيار بين الخير والشر ، وحـــتى الاختيار بين البدائل في مجالات حياته المختلفة، وإذا لم يتح للإنسان بدائل مختلفة للاختيار فإن وظيفة العقل تتوقف ، وبالتالي يفقد الإنسان أهم سمة من سمات تميـــزه دون باقـــي المخلوقات، ومن أجل قيام العقل بوظيفته الأساسية من تفكير واختيار فإنه من الضروري أن يعيش في بيئة حرة .

والحـــضارة الإسلامية لأنها نابعة من الدين الإسلامي فإنها تدعو إلى الحرية في مجالات الحياة كلها ، وأعلى مظهر للحرية هو حرية العقيدة ، قال تعالى : ﴿لا إِكْـــرَاهَ فـــي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٥٦) .

الفصل الثاني

من منجزات المسلمين في مجال العلوم التجريبية

العلوم التجريبية وحركة الترجمة :

العلــوم التجــريبية مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية، فقد رأينا في القرون الهجــرية الأولى اهتماماً كبيراً بتلك العلوم، حيث أسهم المسلمون بقسط وافر في ذلك، فصنفوا الكتب المختلفة، وأحيوا كتباً قديمة، كاد النسيان أن يضيعها، وطوروها، ونقدوا غثها، وأفادوا من سمينها.

وتعد حركة الترجمة للكتب القديمة التي لم تكن بلسان عربي على ذلك اللسان مــدخلاً طبيعياً للحديث عن إسهامات المسلمين في مجال العلوم التجريبية، حيث كانت أغلب هذه الترجمات لا تتعدى ذلك المجال.

ولنا أن نقف وقفة مع هذا الموضوع، لأهميته كمدخل للحديث عن الجهود التي قــدمها المسلمون بعد حركة الترجمة التي بدأت منذ القرن الهجري الأول حتى منتصف القرن الرابع الهجري.

وقد شاع بين المثقفين أن حركة الترجمة تبدأ في عهد الرشيد الخليفة العباسي، والحق أن حركة الترجمة بدأت منذ العصر الأموي، ومرت بمراحل أربعة نوجز الحديث عنها فيما يلي:

الترجمة في العصر الأموي:

يعد ذلك العصر أول محاولة فعلية لترجمة الكتب اليونانية وغيرها، حيث ترجمة كتب في الكيمياء والطب فقط حيث دعت الحاجة في ذلك العصر إليها.

وإذا كنا نقول: إن هذه أول محاولة فعلية للترجمة فذلك لأنه قد حدثت محاولة سابقة زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ حيث أرسل إليه(سعد بن أبي وقاص)ﷺ يستئزنه في ترجمة كتب الفرس التي حصل عليها المسلمون أبان الفنح الإسلامي لبلادهم، وقد رفض أمير المؤمنين عمر ذلك، وأمر بطرح الكتاب في الماء. وقال: (إن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه).

وأول مـــن اهتم من الأمويين بحركة الترجمة هو الأمير خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان، حيث أمر بترجمة كتب الطب والكيمياء. وكان خالد قد سافر إلى مصر عدة مرات شغف فيها بالكيمياء والأساطير التي كانت تكتنفها من إمكانية تحويل المعادن إلى ذهب، فأمر بترجمة بعض كتب الكيمياء التي كانت معروفة في مدرسة الإسكندرية. ويقول ابن النديم في الفهرست: (كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكـــان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، وهو الذي أمر بنقل الكتب من الصنعة- أي الكيمـــياء- من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة) [1]

ويـــأتي بعـــد خالد بن يزيد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي أمر الطبيب البـــصري "ماسرجويه" بترجمة كتاب(أهرن القس) في الطب. ولا نكاد نجد في العصر الأمـــوي ســـوى المحاولتين السابقتين. ولعل سبب قلة الكتب المترجمة في العصر الأموي يرجع إلى قلة اهتمام الخلفاء بهذا الجانب. فلما كان العصر العباسي الأول ظهر الاهتمام بالترجمة منذ عصر الخليفة الثاني(المنصور).

الترجمة زمن العباسيين :

تطـــورت حركة الترجمة قليلا في العصر الأموي ، من حيث المادة المترجمة، أو عدد وثقافتهم، أو مجموع ما ترجم، فضلاً عن الدعم المادي والمعنوي للنقلة من القائمين على هذا الأمر. ففي عصر المنصور ترجمت " كليلة ودمنة " و" السند هند "- وهو مذهب في علم النجوم- ترجمت من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والسنسكريتية إلى اللغـــة العربية، وذلك في علوم: النجوم، والحساب، والطب، والفلسفة، وغير ذلك. فلما كان العصر العباسي سارت الترجمة تتقدم شيئا فشيئا وقد اشتهر في عصر المنصور النقلة: نوبخت المجوسي، وإبراهيم الفزارى المنجم، وعلي بن عيسى الإسطرلابي، وعبدالله بن المقفع، وأبو يحيى البطريق، والطبيب جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع .

ثم ركـــدت حركة الترجمة زمني المهدي والهادي، لتبدأ في الانتعاش منذ زمن الرشـــيد الـــذي اهـــتم بذلك الأمر اهتماماً بالغاً، لما اشتهر به من حبه للعلوم والآداب والفـــنون والقائمين بها، والتشجيع المادي والمعنوي من أجل إنعاش الحركة الفكرية. فقد

أرسل الرشيد الرسل إلى إمبراطورية الروم لشراء المخطوطات اليونانية، كما اهتم البرامكة في عصره بترجمة الكتب الفارسية، وللبرامكة أثرهم الكبير في العناية بترجمة الكتب اليونانية كذلك، والبذل في شأنها. وقد أعاد يحيى بن خالد البرمكي ترجمة كتب المجسطي لبطليموس في علم الفلك، وكان هذا الكتاب قد ترجم زمن المنصور، لكن ترجمته لم ترضي البرمكي. وكان لانتشار صناعة الورق في ذلك العصر أثره الكبير في ازدهار حركة الترجمة، وغيرها من أعمال التأليف في هذا العصر.

وتعد حركة الترجمة في ذلك العصر تمهيداً طبيعياً لعصر المأمون الذي أصبح أكثر تطوراً ودقة في هذا المجال.

الترجمة في عصر المأمون: برز المأمون جميع الخلفاء العباسيين عناية لحركة الترجمة التي بلغة في عصره أقصى درجات التفنن في نقل تراث الأمم الأخرى إلى العربية. وبرز في عصر المأمون جماعة من النقلة من أشهرهم: حنين بن إسحاق، ويوحنا بن ماسويه، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وعمر بن الفرخان الطبري. وقد دخل بغداد مترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس، فيهم النصارى(النساطرة واليعاقبة) ، والماجوس، والصابئة، والبراهمة(الكهنة الهنود) ، والروم/وترجم هؤلاء تراثاً كثيراً من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها. وكثر بسبب ذلك الوراقون، وباعة الكتب، وانتشرت مجالس الأدب والمناظرة، وانشغل الناس بالبحث والمطالعة وصارت فترت حياة المأمون نهضة علمية رفيعة المستوى.

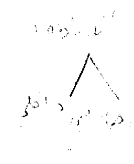
حركة الترجمة بعد عصر المأمون: تراوحت حركة الترجمة بين الضعف والقوة بعد وفاة المأمون، فقد كان المعتصم ومن بعده ابنه الواثق، غير مؤهلين للاضطلاع بمهام هذه الحركة، فلما تولى المتوكل الخلافة أعاد إلى الحركة العلمية بعامة والترجمة بصفة خاصة حيويتها، ثم عادة تلك الحركة إلى الفتور مرة أخرى ، لأسباب كثيرة، لعل من أبرزها ضعف الخلفاء، وتسلط جماعة من الأتراك عليهم .

ومع بداية القرن الرابع الهجري عادة الحركة من جديد إلى سابق عهدها من النشاط والحيوية، وظهرت في هذه الفترة أسماء عديدة مثل: ثابت بن قرة، وابنه سنان،

ومتى بن يونس، ويحيى بن عدي، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وابن زرعة. وهؤلاء كانوا من أشهر النقلة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.

عوامل ازدهار الترجمة :

ازدهرت حركة الترجمة في العالم الإسلامي، وبخاصة في المرحلتين الثانية والثالثة فما العوامل التي أدت إلى ذلك الازدهار؟



وللإجابة على هذا التساؤل، يمكن القول: إن هناك عوامل ذاتية ترجع إلى طبيعة اللغة، والحاجة إلى التراث، وروح الإسلام الدافعة إلى العلم، وظهور ما يسهم في الازدهار مثل صناعة الورق. وهناك عوامل خارجية، مثل رعاية الخلفاء والوزراء والكبراء والعلماء للترجمة، فضلاً ظهور حركة الشعوبية، وظهور الفرق الإسلامية. وفيما يلي نلقي الضوء السريع على بعض هذه العوامل، ونبدأ ذلك بالعوامل الخارجية:

(١) اهتمام الخلفاء بالترجمة، ورعايتهم لها :اهتم الخلفاء بالترجمة اهتماماً بالغاً، نشأ ذلك من طبيعة توجههم. ومن أشهر ذلك اهتموا بالترجمة وراعوها الخليفة العباسي المنصور، الذي كان يميل على التنجم، ويقرب المنجمين، ويطالبهم بترجمة الكتب في الفلك والعلوم. وكذلك كان الخليفة هارون الرشيد يراعي الترجمة بنفسه أو عن طريق البرامكة الذين كانوا يهتمون بها ويغدقون الأموال عليها، ويشيرون على الرشيد بذلك. أما الخليفة المأمون فكان صاحب القدح المعلى في رعاية الترجمة والاهتمام بها، وكان المأمون محباً للعلم بصفة عامة، مقرباً لأهله، باحثاً عن كل سبيل يؤخذ منه علماً،وهو صاحب الكلمة المشهورة(ما رأيت ألذ من النظر في عقول الرجال). وكان المأمون يستخدم علاقته الخارجية بالدولة الرومية في سبيل تحقيق رغبته ففي حالة السلم التي كانت بين الدولتين الإسلامية والرومية أرسل الخليفة المأمون إلى ملك الروم، يطلب منه كتب الحكمة من كلام أرسطوطاليس، فطلبها ملك الروم فلم يجد لها أثراً في بلاده، فاغتم لذلك وقال: يطلب مني ملك المسلمين علم سلفي من يونان فلا أجده؟ أي عذر يكون لي؟ أم أي قيمة تبقى لهذه الفرقة- الرومية- عند المسلمين؟ وأخذ في السؤال والبحث إلى أن حضر إليه أحد الرهبان وأخبره بأن كتب اليونان في موضع (الهيكل) وهو بناء قديم من المرمر والصخور والعظام به من الكتب القديمة ما يحمل على عدة

أحمال، وكانت يونان تتعبد فيه قبل استقرار ملة المسيح في البلاد، ثم أغلق وكان الملوك يقفلون عليه، كل ملك يزيد في زمنه قفلاً حتى لا يقال: أنه احتاج في تدبير ملكه إلى ما في الهيكل، ثم جمع ملك الروم مقدمي دولته، واستشارهم في إرسال هذه الكتب للمأمون، فقال له الراهب: سيرها، فإنك تثاب عليه، فإنها ما دخلت ملة إلا وزلزلت قواعدها، فسار الإمبراطور إلى البيت وفتحه، وأرسل خمسة أحمال منها إلى المأمون الذي أحضر المترجمين فقاموا بترجمة هذه الكتب من الرومية إلى العربية، وأغدق عليهم المأمون العطايا(راجع تاريخ الحكماء للقفطي:٢٩-٣١) (*) .

وهكذا كان المأمون محباً للعلم، باذلاً في سبيله، و لم يكن في الخلفاء من يدانيه في هذه المترلة. وكان الخليفة المتوكل يراعي حركة الترجمة ويغدق على المترجمين، وعلى رأسهم حنين بن إسحاق، كما جدد المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد، وييسر سبل الترجمة.

(٢) اهتمام الوزراء وكبار شخصيات الدولة بالترجمة: كان البرامكة في عهد الرشيد يهتمون بالترجمة، ومن مظاهر ذلك أرسل يحيي بن خالد البرمكي الرسل إلى بلاد الروم، ليطلبوا من ملكهم أن يستخرج ما عندهم من كتب اليونان لينظر المسلمون فيها، فيأخذوا ما يحبون، ويعيدوا الباقي، وقد رضي ملك الروم بذلك بعد استشارة بطارقته، كما أرسل يحيي بن خالد البرمكي إلى بلاد الفرس فجئ بكتب كثيرة ومن أشهر ما

(*) وثمة حدث أخر في حياة المأمون يؤكد حرصه على رعاية الترجمة، والبحث في كل سبيل من أجل رعاية العلم وأهله، فقد أسر أحد تلاميذ(ليون) العالم الرياضي الذي كان يعلم الهندسة في القسطنطينية ويعيش عيشة الفاقة، وقد أظهر هذا التلميذ الأسير براعة في الهندسة، وعرف أمره فلما سئل عن معلمه أحي هو أم ميت؟ فأجاب: إنه حي في القسطنطينية، يعيش فقيراً، فأرسل إليه المأمون ليستقدمه، لكن ليون أبلغ أحد الموظفين الكبار بهذا، فوصل الأمر للإمبراطور، مما جعله يهتم بهذا العالم ويرفض إرساله، حتى بعد أن أرسل المأمون إلى ألالإمبراطور نفسه يطلبه منه، لكن المأمون لم يسكت عند هذا الحد وإنما أرسل إليه بعض المسائل الهندسية التي أجاب عنها إجابات سديدة، وكان سلوك المأمون سبباً في إظهار هذا العالم(راجع تاريخ حضارة الإسلام لجرونياوم: ٧٨،٧٩) ونترك الخوارزمي يقول كلمته في مقدمة كتاب الجبر والمقابلة عن جهد الخليفة المأمون: (... وقد شجعني ما فضل الله به الإمام المأمون، مع الخلافة التي حاز لها إرثها، وأكرمه بلبسها، وحلاه بزينتها، من الرغبة في الأدب،وتقريب أهله، وبسط كنفه لهم، ومعونتهم إياهم على إيضاح ما كان مستبهماً، وتسهيل ما كان مستوعراً على أن الفت من حساب الجبر والمقابلة. كتاباً مختصراً للطيف الحساب وجليله، لما يلزم الناس من الحاجة إليه .

ترجمه البرامكة كتب " كليلة ودمنة " . وكما اهتم البرامكة في عصر الرشيد، فقد اهتم بـنو موسـى بـن شاكر في عصر المأمون، بأمر الترجمة، وبذلوا أموالاً كثيرة وترجموا بأنفسهم، كما استخدموا مترجمين لمعاونتهم، ويقول ابن النديم عنهم:"وهم ممن تناهى في طلـب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب، وقد أتعبوا نفوسهم فيها، فأحضروا النقلة من مخـتلف الأماكن" وأما محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق فكان ينفق من أجـل ازدهار حركة الترجمة، حتى أنه- كما يقول ابن ابيصيبعة-: كان يقارب عطاؤه النقلة والنساخ في كل شهر ألفي دينار، ونقل باسمه كتباً عديدة .

(٣) رغـبة بعـض الأطباء في الحصول على الترجمات: اشتهر بعض الأطباء بالاهـتمام بالتراث الطبي القديم والرغبة في التعرف عليه وترجمته، وكان من بين هؤلاء: الطبـيب " يوحـنا بن ماسويه " الذي ترجم باسمه عدداً كبيراً من كتب الطب، وكان حـنين بن إسحاق يترجم ليوحنا كتباً كثيرة، منها كتب جالينوس. وكان يوحنا أحد الذين أسهموا في نقل المخطوطات اليونانية من القسطنطينية عن طريق البعثات التي كان يبعث بها الخليفة المأمون، وكان يوحنا يقوم بترجمة هذه المخطوطات بنفسه أو عن طريق غيره ويبذل لذلك المال الكثير . وكان"سلمويه بن بنان" أحد الأطباء الذين راعوا حركة الترجمة،وكان رئيس الأطباء في عصر المعتصم، وكان حنين بن إسحاق يترجم له بعض الكـتب اليونانية في الطب. وقد بلغ عدد كتب جالينوس التي ترجمها حنين ليوحنا ثلاثة عشر كتاباً.

(٤) عطايـا المتـرجمين : أسهمت العطايا التي كانت تمنح للمترجمين في إيجاد حـركة قوية نحو الترجمة، مما أدى إلى ازدهارها، ويكفي أن يكون عطاء المأمون لرجل مـثل حنين بن إسحاق هو أن يوضع ما ترجمه من كتب في كفه، ويوضع ما يعادلها من الـذهب في الكفـة الأخـرى، بل إن الخلفاء كانوا يفرضون للمترجمين أرزاقاً شهرية، ويكثرون من البذل والعطاء لهؤلاء المترجمين والنقلة.

(٥) ظهور صناعة الورق : بعد أن فتح الله بلاد ما وراء النهر على المسلمين، وكـان من بينها مدينة(سمرقند) التي اشتهرت بصناعة الورق، انتشرت هذه الصناعة في بقية أنحاء العالم الإسلامي . وظهرت طائفة من الوراقين، الذين يقومون بنسخ الكتب

وتجليدها وتصحيحها وبيعها،وأصبح في هذا المجال عدد من العلماء يقومون بالكتابة، يرتزقون بهذه المهنة وقد أسهمت صناعة الورق في ازدهار حركة الترجمة بشكل واسع.

(٦) **ظهور الفرق الإسلامية** :مع ظهور الفرق المختلفة في بعض المسائل العقدية كقضية القضاء والقدر، والجبر، والاختيار، ومحاولة كل فرقة تقديم ما يؤيد اتجاهه بالحجج العقلية، ودحض أفكار المخالفين كان الاتجاه نحو العقل والمنطق والفلسفة مما أدى إلى إنعاش حركة الترجمة، حيث ترجمت المصنفات الفلسفية اليونانية وكانت فرقة " المعتزلة " تستخدم الحجج العقلية للرد على اليهود والنصارى، وبعض الفرق المخالفة، وكانوا يرون أن اليهود والنصارى يتخذون من المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية مجالاً للجدل، فاضطر المعتزلة إلى ترجمة عدد من كتب اليونان، لتكون من وسائل الدفاع عن أفكارهم، ودحض أفكار من خالفهم.

(٧) **حركة الشعوبية** : كان لوجود العنصر الفارسي في الدولة الإسلامية أثره في ترجمة التراث الفارسي. وقد حاول بعض الفرس إذكاء روح العصبية، بمحاولة إظهار المجد الفارسي، ليظهروا للعرب أن الفرس أصحاب حضارة ورقي، ويحفروا بذلك من شأن العرب. وكان من مظاهر إحياء روح التعصب ظهور ما عرف في التاريخ باسم "حركة الشعوبية" وقد حاول بعض الفرس استخدام الترجمة كوسيلة لتحقيق أغراضهم، ولعل أشهرهم عبد الله بن المقفع الذي ترجم كتاب "كليلة ودمنة" عن الفارسية إلى العربية.

(٨) **طبيعة اللغة العربية** : أسهمت طبيعة اللغة العربية السهلة في ازدهار حركة الترجمة، حيث لم يجد العلماء عناء في التعبير عن أدق الحالات، وكان لمرونة هذه اللغة وقدرتها على إبداع مترادفات، ومصطلحات جديدة أثره في الإقبال على الترجمة، ومما يشير إلى مرونة هذه اللغة وقدرتها على العطاء والتعبير العلمي الدقيق أن الذين ترجموا بعض كتب اليونان كانوا ينقلون المصطلحات اليونانية إلى العربية بألفاظها في بداية الأمر، مثل: (أنالوطيقا، وسوفسطيقا، وقاطاغورياس، وأرثماطيقا، وإبيذيميا) ولكن سرعان ما اكتشف المترجمون أن اللغة العربية تستطيع التعبير عن هذه المصطلحات بألفاظ عربية خاصة، فاستبدلوا الكلمات السابقة بألفاظ عربية خالصة، وقالوا عنها بالترتيب (التحليل، والمغالطة، والمقولات العشر، والرياضيات الوافدة).

(٩) حب العلم والإقبال عليه : دعا الإسلام إلى العلم، وحثت آيات القرآن الكريم، وسنة الرسول ﷺ على طلبه، والإقبال عليه وبينت الفرق بين الذين لا يعلمون ، ودفعت المسلم إلى أخذ العلم من كل طريق ممكن وقد أدى ذلك إلى البحث عن الحكمة والمعـــرفة، فاتجه المسلمون من بين ما اتجهوا إلى التراث القديم وتعلموا الطب والفلسفة والفلك والرياضيات ، وترجموا كتب الأقدمين.وقد أسهم حب العلم والرغبة في تحصيله في ازدهار حركة الترجمة والبذل في سبيل نقل التراث العلمي القديم من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، ليتم النفع بها، فالحكمة ضالة، المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

طرق الترجمة :

استخدم المترجمون للتراث اليوناني والفارسي عدة طرق للحصول على الترجمة، كان أهمها أربعة :

الطـــريقة الأولى : الترجمة الحرفية : وكانت هذه الطريقة تجعل المترجم يهتم بـــنقل الألفاظ من لغة ما إلى العربية دون الاهتمام بالمعنى الإجمالي، وكان لهذه الطريقة عيوبها المختلفة، فهي تضيع جوهر المعنى، وتؤدي إلى دعم ترابط الجمل، وربما لا توجد مـــرادفات لكلمـــة ما، فتنتقل بلفظها إلى اللغة العربية، مع تعديل طفيف يوافق النطق العربي، مثل المصطلحات(الفلسفة- الموسيقى- الجغرافيا- الإسطرلاب) . وكان يمثل هذا الإتجاه في الترجمة يوحنا بن البطريق، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي.

أما الطريقة الثانية : فكانت الترجمة بالمعنى : وهي محاولة قراءة النص الأصلي، ومعرفة مضمونه، ثم التعبير عن هذا المضمون بألفاظ عربية أصلية وقد أدت هذه الطريقة إلى حمايـــة المعنى، والوصول إلى مضمون كاملاً، لكنها كانت تختلف من مترجم لآخر، حيث قد يعبر مترجم بألفاظ جذلة راقية، ويعبر آخر بألفاظ ركيكة غير فصيحة، ويرجع كـــل هـــذا إلى ثقافة المترجم، ومدى تبحره في اللغة، وإدراكه للمترادفات، وتمكنه من الألفاظ التي توصل المضمون بدقة وسهولة. وكان يمثل هذه الطريقة حنين بن إسحق العبادي في القرن الثالث الهجري، وهو الذي ترجم عدداً هائلاً من كتب اليونان.

والطـــريقة الثالثة : التلخيص والاختصار : هذه الطريقة تجعل المترجم يختصر الكـــتاب الـــذي يقـــوم بترجمته، فيعرض مضمونه بصورة مبسطة، وتمتاز هذه الطريقة

بالوصول إلى المضمون بأقرب وسيلة، ولكن هذا الاختصار يرجع إلى ثقافة المترجم، وقدرته على عرض الكتاب ملخصاً دون حذف لمهم أو إضافة ما ليس بمهم . وكان هناك ثلاثة من كبار المترجمين يستخدمون هذه الطريقة، وقد ساعدهم على ذلك تبحرهم في اللغة، وفي كثير من العلوم، وهؤلاء هم: عبد الله بن المقفع، ويعقوب الكندي، ويحيى بن عدي.

والطريقة الرابعة هي : الترجمة غير المباشرة : أو الترجمة من اليونانية إلى السريانية، ثم منها إلى العربية، وكانت هذه الطريقة تحتاج إلى متخرج في اللغتين اليونانية والسريانية، فضلاً عن العربية. وقد استخدم هذه الطريقة حنين بن إسحاق، وابنه إسحاق بن حنين، وابن أخته حبيش بن الحسن الأعسم. وكان حنين يجعل ابنه وابن أخيه يترجمون اليونانية إلى السريانية ثم يقوم هو – غالباً– بالترجمة إلى العربية،كما أن حنيناً استخدم عدداً من النقلة مم يعرفون اللغتين اليونانية والسريانية في هذه الطريقة.

الأمانة في النقل والترجمة:

هذه نقطة جديرة بالنظر، ونحن بصدد الحديث عن الترجمة والنقل للتراث اليوناني والفارسي إلى اللغة العربية، ولقد كان النقل إلى اللغة العربية في العلوم التجريبية من الطب وكيمياء وفيزياء ورياضيات وفلك يتجه إلى الدقة التامة قدر المستطاع، ويرجع السبب في ذلك إلى أن هذه العلوم سيقوم العلماء بتجربة ما فيها بصورة عملية، وسيكتشفون خطأها إن كانت خطأ، وربما انكشف خطأ النقل، وفقدت الثقة في المترجم، وبخاصة إذا كان هناك أكثر من مترجم للكتاب الواحد .

أما كتب "الإلهيات" أو الكتب المتعلقة بالعقيدة والمنطق، فقد كان يشوب ترجمتها بعض التحريف، لتوافق عقيدة المترجم، وشاهد على ذلك أن أغلب المترجمين الأوائل كانوا من النصارى فلما ترجموا كتب أفلاطون على سبيل المثال جعلوه أشبه براهب من رهبان النظام، له معبد، وكان النساطرة واليعاقبة من أكثر الناس خطراً في مجال الترجمة لما كانوا يفعلوه من جعل الترجمة موافقة لمذهبهم واتجاهاتهم. وأما علماء المسلمين، فإنهم كانوا لا يترجمون إلا ما وافق معتقداتهم، وتركوا مادون ذلك، وكان

هــذا بسبب حرصهم الشديد على الأمانة في النقل فإنهم إن تقلوا شيئاً مخالفاً للعقيدة، فسينقلونه دون تحريف، لذلك تركوه مخافة التعرض لعدم الأمانة في الترجمة.

مراكز الترجمة في القرون الهجرية الأولى :

اشتهرت في القرون الهجرية الأولى مجموعة من المراكز الخاصة بالترجمة، منها ما كــان قدماً وجدده المسلمون، ومنها ما أقامه المسلمون في الدولة الإسلامية ليسهم في ازدهــار حركة الترجمة وإنعاشها، فمن بين هذه المراكز: مدرسة الأسكندرية بمصر، التي كــان هــا التراث اليوناني، وقد اشتهرت هذه المدرسة منذ العصر الأموي، وقد زارها الأمــير خالــد بــن يزيد حكيم آل مروان، وأفاد من الكتب التي بها.وكانت مدرسة جنديــسابور بفــارس الــتي عرفت قبل الإسلام بمدة كبيرة، حيث كان النسطوريون والسريان يأمونها، وازدهرت فيها حركة الترجمة بعد الإسلام، وهي التي تخرج فيها عدد من الأطباء والمترجمين، ثم كانت مدرسة إنطاكية وحران بالشام، اللتان انتقل إليها كثير مما كان في مدرسة الاسكندرية، وكانت تأتيهما الكتب من اليونان، ويتم فيها الترجمة، وفي الجزيــرة كانت مدرسة نصيبين ومدرسة الرها وقد اشتهرتا بترجمة الكتب الفلسفية من التراث الإغريقي، أما بيت الحكمة في بغداد، فكان من انشط مراكز الترجمة، بحكم موقعه، وقربه من بلاط الخلافة ومراكز إدارة الدولة الإسلامية، ولذلك كان الاهتمام به كبيراً، يؤمه المترجمون عن كل مكان، ويفد إليه العلماء، وطلاب العلم، وتجمع فيه نوادر الكتب التراثية.

نتائج حركة الترجمة :

وبعــد هذا الكلام الموجز عن حركة الترجمة نذكر باختصار أهم النتائج العامة التي ترتبت عليها . وينبغي أن نذكر هنا أولا أن الحضارات أخذ وعطاء وأي حضارة لا تفيد من غيرها أو لا تعطي تعد حضارة جامدة ميتة تندثر بمرور الزمن.

ومن هنا نقول : إن الحضارة الإسلامية كانت حضارة بعث وإحياء فقد أحيت موات حضارات قديمة.لقد أفاد المسلمون من الكتب التى ترجموها ، وبخاصة ما أخذوه عــن الأغريق ، لكنهم شكلوا المادة العلمية التى حصلوا عليها تشكيلاً جديداً، وابتكروا طريقة البحث العلمي الصحيح، وهي طريقة البحث القائم على التجربة والملاحظة، فقد

اختبر العلماء في الدولة الإسلامية تلك النظريات والقواعد والآراء العلمية التي ترجموها، فأثبـــتوا صـــحة الصحيح منها، ونبهوا على خطأ بعضها وعدلوه. ويرد هنا سؤال: هل يـــنقص من قدر الحضارة الإسلامية أنها أفادت من الحضارات السابقة عليها والجواب: لا.. فـــإن أحـــداً لم يقـــل إن إفادة اليونانيين القدماء من بعض عناصر حضارة قدماء المـــصريين قلل من شأن من كسر حضارة الرومان. وبالتالي فإن قدرة الحضارة الإسلامية علـــى الأخذ من الحضارات الأخرى، ليس دليلاً على نقصها. ويكفي حضارة الإسلام فخرا أنها رفعت شعار الأمانة في النقل ، كما يكفيها أنها أخذت ماينفع البشر ، تاركة ما يخص العقيدة لأن عندها ما يغنيها في هذا الجانب (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) ، وقد انتقت أفضل عناصر الحضارات القديمة، واقتبستها وهضمتها، وأخرجتها في ثوب جديد.

واتجهـــت إلى كـــتاب الله تعالى، دستورها الدائم لترد به على كثير من الآراء والأفكـــار الـــتي وجـــدوها في الكتب التي ترجموها، ووجدوا فيها ما يخالف العقيدة الإســـلامية.وسخرت هذه الحضارة ما ترجمته ثم ما طورته من علوم بعد هذه الترجمة، سخرت كل ذلك في سبيل حياتها الإسلامية، وتحقيق هدفها الأسمى وهدف كل مسلم، وهـــو عبادة الله الواحد الأحد، فسخروا علم الرياضيات لخدمة مسائل شرعية كالميراث وغيره، وسخروا الفلك للتعرف على هلال رمضان وغيره. وقد جعلت من قضية الترجمة مجالا للعلاقات الدبلوماسية بين الدول المختلفة. وأنقذت تراثا كثيرا للعالم كاد أن يموت ويعتـــريه النسيان، ويكفى أن البرامكة مثلا أرسلوا للرومان ليحصلوا على مجموعة من الكـــتب والمخطـــوطات كانوا قد بنوا عليها بناء هائلا حتى لا يفيد منه أحد، فأخرج المـــسلمون ذلك إلى النور ليخدم البشرية جمعاء. وحفظت حضارة الإسلام ذلك التراث ثم صوبته وطورته وأضافت إليه ليأتي بعد ذلك الأوربيون، فيعتمدوه أساسا في نهضتهم الحديثة . ويكفي الحضارة الإسلامية فخرا أنها أعطت الباحثين المسلمين فرصة للبحث في مصادر الكلمات غير العربية ، وإيجاد اشتقاقات جديدة لها من طبيعة اللغة العربية المرنة، مما أدى تطوير البحث اللغوى.

وســـنقف بعد قليل على جوانب مهمة كانت نتيجة لتلك الحركة (الترجمة) في الطـــب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك..غير أنه من الضرورى التأكيد على أنه

ربما ظهر من بين العلماء من ليسوا على دين الإسلام، لكنهم عاشوا فى ظل الدولة الإسلامية، وخلفاء المسلمين هم الذين استعملوهم فى هذه الأغراض العلمية،وبالتالي فهم يحسبون للحضارة الإسلامية صاحبة الفضل في ظهورهم وتشجيعهم؛ وهذا يشير إلى سماحة الإسلام وعدله.

بعض إسهامات المسلمين في مجال الطب

كلمة "الطب" في أبسط معانيها تعني : فن معاجة المرضى والمتألمين والمصابين بشيء من الرفق . ولذلك فإن الطب مهمة إنسانية عالية القدر ، رفيعة المترلة ؛ لأن تخفيف الآلام عن الإنسان يدفع إلى القوة ، وبالتالي إلى العمل والكدح وتعمير الأرض ، وهذا هدف من أهداف الحضارة الإسلامية ، لذلك كان الأطباء المسلمون يمتهنون هذه المهمنة ابتغاء مرضاة الله ، لا يتقاضون عليها أجرا من الناس. وقد فصل علماء المسلمين القول في تعريف "الطب" وفي كيفية رفع الألم وإزالته في كل عضو من أعضاء بدن الإنسان باستخدام أدوية أو أغذية مجربة ، وللإسلام نظرة خاصة للطب يجدر بنا التنويه بها قبل التعرف على بعض إسهامات الأطباء المسلمين ومنجزات الحضارة الإسلامية في هذا المجال .

نظرة الإسلام للطب :

جاء الإسلام يحمل معه أسس الحضارة الإسلامية بمفهومها الشامل، فقدم جوانب من الحضارة لم يعهدها البشر وحث على اكتساب جوانب أخري وتطويرها . وقد وضع الإسلام فى مجال الطب قواعد عامة تبقي ثابتة أبد الدهر، وترك للناس حرية البحث والتنقيب لرفع الآم ومداوة المصابين، ولكن ضمن إطار عام ينبغى إلتزامه.

وفيما يلي عرض القواعد العامة التى وضعها الإسلام فى مجال الطب:

أولا : المحافظة على الصحة : الصحة والعافية من أجل نعم الله على عباده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظا من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يضادها.

قال رسول الله ﷺ :" نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ" (رواه البخاري) . وقال ﷺ :" من أصبح معافى فى جسده، آمنا فى سربه عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا"(رواه الترمذي). وقال ﷺ للعباس:"يا عباس يا عم رسول الله! سل الله العافية فى الدنيا والآخرة"(مسند أحمد) . وكان ﷺ يدعو كل صباح ومساء قائلا:" اللهم عافنى فى سمعي، اللهم عافنى فى بصري، اللهم عافنى فى بدني". وكان ﷺ يقول لأصحابه ﷺ:" سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد بعد اليقين خيرا من العافية". (مسند أحمد) .

ومن هنا حرص القرآن الكريم على حفظ الصحة كقاعدة مهمة من قواعد الطب ، كما حرصت السنة النبوية على بيان ذلك، فمن بين ما ورد في القرآن الكريم: جاء في آية الصوم (فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) (البقرة : ١٨٤) . قال ابن قيم الجوزية في زاد المعاد"أباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلبا لحفظ صحته وقوته، لئلا يذهبها الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة، وما يوجبه من التحليل، وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة، وتضعف، فأباح للمسافر الفطر، حفظا لصحته وقوته عما يضعفها" .

وفي آية الحج: (فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ) (البقرة : ١٩٦) .قال ابن قيم الجوزية أيضا:" فأباح للمريض ومن أذى من رأسه، من قمل، أو حكة، أو غيرهما، أن يحلق رأسه في الإحرام، استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه، تفتحت المسام، فخرجت تلك الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه، والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة (الدم إذا هاج، والمنى إذا تبيغ، والبول، والغائط، والريح، والقيء، والعاطس، والنوم، والجوع، والعطش) . وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحبسه. وقد نبه سبحانه بإستفراغ أدناها، وهو البخار المحتقن في الرأس على إستفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن التنبيه بالأدنى على الأعلى"

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾(الأعراف: ٣١) إرشاد واضح إلى ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه، على أن يكون ذلك بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية، فمتى جاوز الإنسان ذلك كان إسرافا، وهذا الإسراف مانع للصحة، جالب للمرض.

ومن تأمل هدي النبي ﷺ وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به ، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب والملبس والمسكن والهواء والنوم واليقظة والحركة والسكون والمنكح والاسنفراغ والاحتباس ، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة ، كان أقرب إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل .

ونورد هنا بعض هديه ﷺ من خلال بعض الأحاديث الواردة في ذلك :

الوقاية خير من العلاج :

فالمسلم ينبغي أن يقي جسمه من الأمراض باتباع وسائل معينة ، منها :

- تنظيم وجبة الطعام حتى لا يطغى الطعام على الشراب أو النفس ، مصداقا لقوله ﷺ : "بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فاعلا، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه" (رواه الترمذي وأحمد).

- ومنها الصيام : وقد فرض الإسلام على المسلمين صوم شهر كل عام هو شهر رمضان بنص قوله تعالى :(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:١٨٥) .

وحثت السنة النبوية على صيام التطوع كصوم يومي الإثنين والخميس ، والأيام الست من شهر شوال ، وغير ذلك ، وبينت السنة النبوية كذلك فضل الصيام ، وأنه وقاية ، فقد قال ﷺ :"الصوم جنة" أي وقاية ، وكلمة "جنة" جاءت نكرة لتشير إلى أن الوقاية عامة غير مخصصة ، فهي وقاية للبدن ، ووقاية للعقل ، ووقاية للسان ، ووقاية للجنان . وقد أثبت الطب الحديث فوائد عديدة للصوم وأنه يقي من أمراض كثيرة،

ويكفـــي أن مرضى السكري على سبيل المثال تتحسن أحوالهم الصحية في شهر رمضان أكثر من غيره من الشهور.

- ومـــنها تحريم مأكولات ومشروبات معينة تضر بجسم الإنسان .قال تعالى:(حـــرمت علـــيكم الميـــتة ولحـــم الخنزير وما أهل لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطـــيحة، ومـــا أكـــل السبع إلا ما ذكيتم، وما ذبح على النصب، وأن تستقسموا بالأزلام، ذلكم فسق) (الأنعام ٣) . وقد أثبت الطب الحديث أن جميع هذه الأنواع التى ذكرت فى هذه الآية تجعل من الميكروبات والأوبئة مما يجعل من الضرورى الابتعاد عنها.

- أما عن الشراب، فقد قال سبحانه وتعالى :" (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ". وفى تحريم الخمر حكم كثيرة: فهى تذهب العقل وتضر بالجسم، ولذلك كان لا بد من وقاية هذا الجسم من هذه الأمراض.

النظافة خير علاج :

حث رسول الله ﷺ على النظافة، وقد ورد فى ذلك عدد كبير من الأحاديث، نـــورد هنا بعضها، مما يشير إلى ذلك المعنى. قال رسول الله ﷺ :"النظافة من الإيمان" ، فالمـــؤمن ينبغـــي أن يكون نظيفا فى بدنه نظيفا فى ملابسه نظيفا فى قلبه ونفسه. ومن مظاهر النظافة التى حث عليها الإسلام:

الوضوء قبل الصلاة، لقوله ﷺ " الطهور شطر الإيمان" (رواه مسلم).

والاغتســـال والتطيب يوم الجمعة: لقوله ﷺ : "لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهـــر مـــا استطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفـــرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تلكم الإمام، إلا غفر ما بينه وبين الجمعـــة الأخرى".(رواه البخاري).وقد صح عنه ﷺ أنه قال : "إن لله حقا على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام وإن كان له طيب أن يمس منه".وفي رواية أخرى عند البخاري بلفظ:"الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم وأن يمس طيبا إن وجد"

والاستياك لنظافة الفم ، لما روته السيدة عائشة — رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال:" إن السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب".(رواه النسائي وابن خزيمة).

ونظافـــة بعض ما ينبت فى الجسم، كحلق العانة، ونتف الأبط، وتقليم الأظافر، وقـــص الـــشارب، لقـــوله ﷺ قـــال:" الفطرة خمس- أو خمس من الفطرة: - الختان والاستحداد، وتقليم الأظافر، زنتف الإبط، وقص الشارب"..(متفق عليه).

ونظافـــة عقد الأصابع، والاستنجاء ، لقوله ﷺ :" عشرة من الفطرة... وذكر منهم: غسل البراجم (أي عقد الأصابع)، وانتقاض الماء (أي الاستنجاء).(رواه مسلم).

ونظافـــة المـــنازل مـــن القمامة وغيرها، لقوله ﷺ:" إن الله طيب يحب الطيب ونظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفناءكم وساحاتكم، ولا تـــشبهوا باليهود يجمعون الأكب فى دورهم "(رواه البزار) . والأكب: الزبالة. وفي روايـــة عـــند الطبراني فى المعجم الأوسط عن سعد بن أبي وقاص ﷺ مرفوعا:" طهروا أفنيتكم، فإن اليهود لا تطهر أفنيتها"(حديث حسن).

ثانيا : طلب التداوى والحث عليه:

حـــث الرســـول ﷺ على التداوي فى الحديث المتفق عليه فى الصحيحين عن أبي هريـــرة ﷺ قال :قال رسول الله ﷺ :" ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء". وقال: "لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل"(رواه مسلم) .

وعن أسامة بن شريك قال:كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا يا رسول الله ! أنتداوى؟ فقال :" نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد "قالوا: ما هو؟ قال:" الهرم" وفى لفظ "إن الله لم يترل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله"(مسند أحمد) .

وحتى لا يظن ظان أن ذلك ينفي حقيقة التوكل يأتي هذا الحديث عن أبي خزامة ﷺ قـــال: قلت: يا رسول الله ! أرايت رقى نسترقيها، ودواء نتداوي به، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال:" هي من قدر الله"(مسند أحمد) .

ويمتاز الإسلام بأنه أضاف إلى التداوى بالأدوية والأغذية: الارتباط العقيدي بالله عـــز وجل الذى بيده الشفاء أصلا، لذلك كان رسول الله ﷺ يدعو الله طلبا للعافية، ثم يـــبحث عن الدواء المناسب المجرب. وقد أفرد العلماء كتبا فى الطب النبوي بينوا فيها

أنـواع الأدويـة وطرق العلاج التي كان يستعملها الرسول ﷺ، وجمعوا أقواله في هذا الصدد، ومن ذلك ما جاء في كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد للإمام ابن القيم .

ويجـدر بنا هنا أن نشير إلى ما ذكره ابن خلدون في مقدمته، ثم نعلق عليه، فقد قـال"... ووقع ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة لا من وجهـة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل،فإنه ﷺ إنما بعث ليعلمنا الشرائع، ولم يـبعث لتعـريف الطب ولا غيره من العاديات، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل، فقـال: أنـتم أعلـم بأمور دنياكم، فلا ينبغي أن يحمل شئ من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إلا إذا استعمل على جهـة التـبرك، وصدق العقد الإيماني، فيكون له أثر عظيم النفع، وليس ذلك في الطب المزاجي، وإنما من آثار الكلمة الإيمانية، كما وقع في مداوة المبطون بالعسل، والله الهادي إلي الصواب لا رب سواه".

ونـسوق هنا كلام ابن قيم الجوزية في "زاد المعاد" تعليقا على قول ابن خلدون حـيث قـال ابن قيم الجوزية:" وليس طبه ﷺ كطب الأطباء فإن النبي ﷺ متيقن قطع إلهـي، صـادر عن الوحي، ومشكاة النبوة، وكمال العقل، وطب غيره أكثره حدس، وظـنون وتجارب. ولا ينكر انتفاع عدد كثير من المرضي بطب النبوة، فإنه إنما ينتفع به مـن تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآن الذى هو شفاء لما في الصدور – إن لم يتلق هذا المتلقي- لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها، بل لا يزيد المنافقين إلا رجسا إلى رجسهم، ومرضا إلى مرضهم، وأين يقع طب الأبـدان منه، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيـبة والقلـوب الحـية. فإعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذى هو الشفاء النافع، وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لخبث الطبيعة، وفساد المحل، وعدم قبوله، والله الموفق".

ويـرد هـنا سـؤال: فمـاذا يمكن أن نفسر قصة العسل؟ وهي التي وردت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلا أتي النبي ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه ، وفي رواية (استطلق بطنه) فقال اسقه عسلا، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فلم يغن

عــنه شيئا، وفى رواية: فلم يزده إلا استطلاقا مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقوله له: اسقه عسلا، فقال فى الثالثة أو الرابعة: صدق الله وكذب بطن أخيك". يقــول الإمام ابن قيم الجــوزية :"وفى قــوله ﷺ :"صدق الله وكذب بطن أخيك" إشارة إلي تحقيق نفع هذا الــدواء، وإن بقاء الداء ليس بقصور الدواء فى نفسه، ولكن لكذب البطن، وكثرة المادة الفاسدة فيه، فأمر بتكرار الدواء لكثرة المادة". وفضلا عن ذلك فقد أثبت العلم الحديث أن للعسل فوائد تفوق الحصر، وصدق الله العظيم القائل(يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس)(النحل: ٦٩) . وفضلا عن ذلك ينبغي أن نعلم أن رسول الله ﷺ كــان يعيش فى مجتمع يتخذ التجربة طريقة فى المداوة، وقد جربت أدوية كثيرة ذكرها النبي ﷺ وكانت نافعة وصالحة. وأثبتت الفحوص الطبية الحديثة صدق ما أخبر به النبي ﷺ ومــن ذلك على سبيل المثال:قوله ﷺ"الحبة السوداء شفاء من كل داء" فقد أكدت الفحوص أن الحبة السوداء المعروفة بحبة البركة تقوى جهاز المناعة فى الجسم.

وخلاصة القول: إن الإسلام جاء ليقضي على جميع الخرافات التى عمت أغلب أمور الحياة، ومنها" الطب" فلم يدع الإسلام مجالا للشعوذة والسحر والتنجيم والتمائم فى هــذا المجــال، وإنمــا جعل العلاج بدعاء الله عز وجل بإيمان صادق أن الشفاء بيده سبحانه، مع المعالجة بالأدوية المجربة.

الطب فى القرون الهجرية الأولى :

ظهــرت فى مجال الطب فى عهده ﷺ عدد من الأطباء كانت لديهم خبرات وبخاصــة فى مجــال الجــراحة، اكتسبوها من تجاربهم الشخصية أو من اتصالهم بمدرسة جنديــسابور الــتى سبقت الإشارة إليها، ومن هؤلاء الأطباء: الحارث بن كلدة، وابنه النــضر بن الحارث، وابن أبي رمثة التميمي، الذى كان يريد معالجة خاتم النبوة فى ظهر النبي ﷺ والسيدة رفيدة، والسيدة أم عطية الأنصارية، رضى الله عنهما، وكانتا تقومان بمداواة الجرحي فى الحروب الإسلامية ..الخ.

وبــرز فى عهد الأمويين أطباء، منهم طبيبان دمشقيان نصرانيان كان فى بلاط معاويــة بــن أبي سفيان- ﷺ - أحدهما:- ابن آثال الذى كان على معرفة بالسموم والأدويــة، والثاني: أبو الحكم، وقد عمر طويلا. ومنهم: زينب الأدوية، طبيبة بنى أود،

وكانت كاحلة ماهرة بطب العيون، وعبد الملك بن أبجر الكناني، وقد أسلم على يد عمر بن عبد العزيزوهو فى مصر، فصحبه معه قبل توليه الخلافة، واستطبه، وحكم بن الحكم الدمـــشقي، وولده وكانا ماهرين بصناعة الطب.وكان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي ســـفيان الذى اشتهر بلقب"حكيم آل مروان" هو أول من نقل فى الإسلام ترجمة لكتب طبـــية وغيرهـــا. وكان أول من بني مستشفي فى الإسلام- إذا استثنينا خيمة رفيدة وأم عطية، وغيرهما- هو الوليد بن عبد الملك.

ومـــع بدايات القرن الثاني الهجري أصبح للطب مكانته بين العلوم التجريبية، ومـــع اتـــساع الدولة الإسلامية، وتمصير الأمصار الحاجة ماسة إليه، فلجأ المسلمون إلي مدرســـة جنديسابور بفارس، وأخذوا ينقلون عنها طب اليونان والسريان، كما تعلموا فيها وانتشروا فى أقطار العالم الإسلامي، ومن أشهر النقلة لكتب الطب من تلك المدرسة يوحنا بن ماتسويه،وحنين بن اسحاق،وثابت بن قرة،وقسطا بن لوقا البعلبكي، وغيرهم.

ولما زادت الحاجة إلي الأطباء استقدمهم الخلفاء من "جنديسابور"ففى سنة(١٤٨هـــ) مرض الخليفة العباسي المنصور، فاستقدموا له "جورجيس بن بختيشوع" الطبيب النصراني مـــن"جنديـــسابور" وقد نجح هذا الطبيب فى علاج "المنصور" بعد فشل أطباء بغداد فى علاجـــه، وكان ذلك سببا فى ضم هذا الطبيب إلي بلاط الخلافة، وأصبح طبيب الخليفة الخاص، كما أصبح أحفاده من بعده الخلفاء العباسيين نحو ثلاثة قرون من الزمان.

الطب وحركة الترجمة منذ القرن الثالث الهجري: ومع بدايات القرن الثالث الهجـــري بـــدأت حركة الترجمة تنتعش بصورة جيدة وكان للخليفة المأمون أثر بالغ فى تنـــشيط حركة الترجمة ببناء دار الحكمة، والتوجه نحو استقدام المترجمين والعلماء إليها. وقد ترجمت فى هذه الآونة كتب كثيرة فى مجالات عديدة كالفلسفة والمنطق والكيمياء، كما كان لكتب أبقراط وجالينوس من بعده فى الطب نصيب وافر من الترجمة.

يمكننا القول : إن إسهامات المسلمين الحقيقية فى مجال الطب، وإن كانت ترجع إلي عهـــد الرسول ﷺ إلا أنها تبدأ بعصر الترجمة، حيث ساعدت هذه الترجمة المسلمين على مواصلة البحث والتنقيب، فنبغ عدد كبير من العلماء فى كل المجالات، وكان للطب

علمـــاؤه الذين أفادوا من الترجمة لكتب جالينوس، وزادوا عليها من أفكارهم وتجاربهم وخبراتهم، وألفوا المؤلفات التي أبانت مدى حذقهم في تلك الصناعة .

من إنجازات المسلمين في الطب :

بعـــد حـــركة التـــرجمة التي بدأت في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجـــري اتسع مجال البحث في علم الطب، واتسع مجال استخدامه أيضا، ويمكن لنا أن نذكر هنا عددا من إنجازات المسلمين في الطب، سواء أكانت هذه الانجازات كتبا علمية أو أمراضـــا مكتـــشفة،أو أدويـــة جديدة، أو أدوات طبية تستخدم في الجراحة، وأخيرا اســـتخدام العـــلاج النفـــسي لعـــلاج أمراض عضوية، هذا غير طرق فحص المريض، والتصويبات الطبية لأفكار ونظريات سابقة، معتمدين في ذلك على التجربة والمشاهدة، وفيما يلي شئ من التفصيل عن ذلك: -

أولا : كتب علمية في الطب :

ترجم العلماء في الدولة الإسلامية عددا كبيرا من كتب الطب إلى اللغة العربية، ولاسيما كتب أبقراط وجالينوس، ولكنهم لم يكتفوا بتلك الترجمات، وإنما صنفوا كتبا جديـــدة تعـــتمد على ملاحظاتهم وتجاربهم الشخصية، فضلا عن المعطيات التي حصلوا عليها من خلال الكتب المترجمة. وفي كتبهم ظهرت معارف شتى، واتسمت أغلب هذه الكتب بالموسوعية في فروع الطب المختلفة، وربما نقدوا آراء جالينوس وغيره بعد تجارب دقـــيقة وأثبـــتوا ذلك في كتبهم التي صارت من أهم المواد الدراسية التي اعتمدت عليها أوربا في نهضتها الحديثة.

وأشـــهر منجزات علماء المسلمين في هذا المجال : كتاب فردوس الحكمة لابن ربن الطبري(*) ، وكتب المنصوري والحاوي ومنافع الأغذية للرازي ، والقانون لابن سينا،

(*) هـــو "أبـــو الحسن على بن سهل بن ربن الطبري" أحد أطباء العصر العباسي، كان يعالج بالطب المعتصم والواثق والمـــتوكل، وأصله من مرو في خراسان.فسر أبو الحسن معنى كلمة (ربن) في بداية كتابه" فردوس الحكمة" الذى سيرد حـــديث عنه بعد قليل، فقال: "كان أبي من كتاب مدينة مرو، وذوى الأحساب والآداب بها، وكانت له همة إلى ارتياد البر، ، وبراعة ونفاذ في كتب الفلسفة،وكان يقوم الطب على صناعة آبائه، و لم يكن مذهبه التمدح والاكتساب بل التأله والاحتـــساب، فلقب بـــ"ربن" وتفسيره:" عظيمنا ومصلحنا" وفي هذه القصة التي يرويها أبو الحسن أمران مهمان أما الأمـــر الأول فهـــو أن ابن ربن الطبري أخذ هذه المهنة عن أبيه وأجداده، فهي ميراث علمي في الأسرة، وأن أباه كان

وشرح تشريح القانون لابن النفيس، والجامع لمفردات الأغذية والأدوية لابن البيطار، وغيرها من الكتب التي قدمت علما غزيرا ، وتجربة واسعة . ونقف هنا مع كتابين فقط منها بشيء من التوضيح .

كتاب فردوس الحكمة لابن ربن الطبري : لابن ربن مؤلفات فى الطب عديدة، منها" تحفة الملوك"و"منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير" و"حفظ الصحة"و"الحجامة" و"فردوس الحكمة". وهذا الكتاب الأخير هو ما سنتناوله فى السطور التالية بإذن الله.

وكتاب "فردوس الحكمة" سفر مختصر، لكنه على هيئة الموسوعات، لما حواه من بحوث فى الطب، والفلك، والظواهر الجوية، وعلم النفس، وغير ذلك، فأين ربن يعد بهذا أول من ألف على طريقة المؤلفات اليونانية.والكتاب مقسم إلي سبعة أنواع، والأنواع السبعة تحتوى على ثلاثين مقالة، والمقالات تحتوى على ثلاثمائة وستين بابا.وقد استعان ابن ربن الطبري فى تأليف هذا الكتاب بكتب أبقراط، وأرسطوطاليس، وجالينوس ويوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحاق. ويعد ابن ربن الطبري أول من أعلن أن مرض السل ينتقل بالعدوى، وأنه لا يصيب الرئتين فحسب بل يصيب الأعضاء الأخرى كذلك.

كتاب القانون لابن سينا :ألف ابن سينا (••)فى علوم شتى ومعارف كثيرة، وبلغت مؤلفاته المائة كتاب وزاردت، ويهمنا هنا الوقوف أمام أجل كتاب فى الطب وهو "القانون" الذي يعد أكبر كتب ابن سينا حجما، وأعظمها شهرة، فهو موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بمسائل الطب فى تلك الفترة، حيث لم يترك ابن سينا بابا من أبواب

يمارس المهنة، وفى ذلك مزيد من التعليم له، ليجمع بذلك بين النظرية والتطبيق، ولذلك أصبح ابن ربن الطبري طبيب الخلفاء.والأمر الثاني هو أن الطب لم يكن للتمدح والاكتساب، بل للتألة والاحتساب، وهذا يشير إلي شرف هذه المهنة، وإلي الورع الذى كان عليه والد ابن ربن، ولا شك أنه ورث هذا السلوك عن أبيه، مثلما ورث عنه مهنة الطب.

(••) ابن سينا "أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا" ، من أبناء بلخ فى "خراسان" ونزيل بخاري فى ما وراء النهر ، يقول عن نفسه"... رغبت فى علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه، والطب ليس من العلوم الصعبة لمن يهواه، فلا غرو أن برزت فيه فى أقل مدة، حتى بدأ الأطباء يقرأون عليّ، وتعهدت المرضي، فانفتح على باب من أبواب المعالجات المقتبسة من تجاربي الشخصية".وذاع صيت"ابن سينا" وأرسل إليه "نوح بن منصور الساماني أمير خراسان يستطبه فى مرض ألم به، فكتب الله الشفاء على يدي ابن سينا، فغمره"نوح" بالعطايا، وأعلي منزلته وسمح له بالإطلاع على نفائس مكتبته الخاصة، فعكف على القراءة والبحث فى جد ومثابرة .

الطب إلا وطرقه.والكتاب مقسم إلى خمسة كتب الأول: فى الأمور الكلية من علم الطب، تكلم فيه عن المبادئ النظرية أي التشريح وعلم وظائف الأعضاء أو كما يقول:"فى ماهية العضو وأقسامه والعظام والعضلات والأعصاب والشرايين والأوردة، وفى تصنيف الأمراض والأسباب والأعراض،وفى قوانين المعالجات"،وبسط فى الكتاب الثاني القوانين التي يجب أن تعرف من أمر الطب، وقوى الأدوية المقررة، أما الكتب الثلاثة الباقية فقد ذكر فيها "الجزء العلمي الحافظ للصحة،والعملي المعيد للصحة"بادئا بأمراض الرأس ومنتهيا بأمراض أطراف الأعضاء ويختص الكتاب الخامس بالأدوية المركبة المعروفة بالأقرباذين. وقد ترجم كتاب"القانون" إلي عدد من لغات العالم، وكانت أول ترجمة له باللاتينية على يد "جيرارد الكريموني"المتوفى سنة١١٨٧م واتخذت جامعات أوربا كتاب القانون مرجعا أساسيا لتعليم الطب لا فى أوربا وحدها بل فى انجلترا واسكتلندا.

وأول من اعترف بكتاب القانون رسميا كمرجع فى تدريس الطب جامعة"بولونا" فى القرن الثالث عشر، حيث أنشئت فى تلك الجامعة عام ١٢٦٠م كلية العلوم ومنذ ذلك الحين بدأ قانون ابن سينا يغزو جامعات أوربا اللاتينية ومدارسها حتى أصبح يمثل نصف المقررات الطبية فى سائر الجامعات الأوربية فى أواخر القرن الخامس عشر أي عند مولد الطب القائم على المناهج العلمية الحديثة(•).

(•) لم يقتصر طبيبنا"ابن سينا" على كتاب القانون، وإنما كانت له كتب ورسائل أخرى مثل: "رسالة الأدوية القلبية" وغيرها. وفيما يلي نذكر بعض ما تميز به الشيخ الرئيس ابن سينا فى مجال الطب: فابن سينا يعد أول طبيب قام بحقن الإبر تحت الجلد، وأول من استخدام التخدير لإجراء العمليات الجراحية. وهو أول طبيب تعمق فى أمراض قرحة المعدة، وأمراض المعدة، وبخاصة القولون، ويرجع ابن سينا أمراض المعدة إلي سببين الأول: نفساني يؤدي إلي اضطرابات معوية، والثاني: عضوى ومنه قرحة المعدة، فكان بذلك أول الذين فطنوا إلي التأثيرات النفسانية التى تؤثر فى الجهاز الهضمي. وفرق ابن سينا بين حصاة المثانة فأصلب وأكبر حجما، وأقرب إلي الدكنة والركادية والبياض، وإن كان قد يتولد فيها حصاة متفتتة. وقال ابن سينا:" إن البول فى حصاة المثانة يميل إلي بياض ورسوب ليس بأحمر، بل إلي بياض أو رمادية، وربما كان غليظا زيتيا، وأكثره يكون رقيقا وخصوصا فى الابتداء والحصاة الصغيرة أحبس للبول من الكبيرة؛ لأنها تنشب فى المجرى، أما الكبيرة فقد تنزل فى المجري بسرعة.وابن سينا أول من فرق بين شلل الوجه الناشئ عن سبب داخلي بالشلل الناشئ عن سبب خارجي. وهو أول من وصف الديدان المعوية. وهو أول من أجاد وصف الجهاز التنفسي والأمراض العصبية. ومع أن الجراحة لم تبلغ فى عصره الحد الذى تجري معه العمليات الجراحية ولكنه امتاز بالجراحة المتصلة بالأورام الخبيثة(أي السرطان) وفى ذلك يقول أحد الباحثين (٥٥م) فى بحثه الذى ألقاه فى مؤتمر ابن سينا فى بغداد:" إن أراء ابن سينا عن السرطان مضبوطة كل الضبط، ولا يسع أن ينكر أهميتها أحد بالنسبة للطب الحديث، فقد

ثانيا : أمراض اكتشفها الأطباء المسلمون : لم يكتف الأطباء فى الدولة الإسلامية بترجمة كتب الأقدمين، ولا الإفادة مما عرفوه من الأمراض عن طريق تلك الترجمة، وإنما مارسوا الطب عمليا، فظهرت لهم أمراض جديدة لم تكن معروفة من قبل، وبحثوا عن طرق علاجها، وفيما يلي نتحدث عن بعض هذه الاكتشافات: فقد أعلن ابن ربن الطبري فى القرن الثالث الهجري لأول مرة أن مرض السل ينتقل بالعدوى وانه لا يصيب الرئتين فحسب بل يصيب الأعضاء الأخرى كذلك.واكتشف الرازي مرض الحساسية حين كتب رسالة فى الحالة التي تصيب إبراهيم البلخي عندما يشم الورد والرازي أيضا أول من فرق بين مرض الجدري ومرض الحصبة.واكتشف ابن سينا الفرق بين الالتهاب الرئوى والبلورى وبين التهاب السحايا الحاد والثانوى، وبين المغص الكلوى والمغص المعدي، كما فرق بين حصاة المثانة وحصاة الكلية فى الطريقة والمقدار وابن سينا أول من وصف الديدان المعوية بد، كما أنه أول من اكتشف مرض الانكلستوما.وكان لآراء ابن سينا فى الأورام الخبيثة أهمية بالغة فى الطب الحديثة حيث وصف بدقة مرض السرطان والطرق الجراحية الممكنة فى علاجه.

ثالثا : أدوية جديدة اخترعها الأطباء المسلمون: اكتشف الأطباء استخدام المخدر فى العمليات الجراحية كما أنهم أول من استخدموا الماء البارد لمعالجة النزيف، وأول من أشاروا بالمأكولات النباتية كعلاج لحالات البواسير.وكان للأطباء فى الدولة الأموية بصفة خاصة مهارة فائقة فى طب العيون وعلاجه،وهم أول من قاموا لعمليات جراحية لاستخراج الماء الأزرق من العين.

رابعا : الفحص الطبي الدقيق :كان الأطباء فى الدولة الإسلامية يقومون بفحص طبي دقيق للمريض واهم طريقتين للفحص الطبي هما: فحص البول، وحسن النبض. وكانت لديهم وسائل أخري يتبعونها لدقة الفحص،منها: سؤالهم المريض عما يشكو وعن طريقة معيشته،

لاحظ بدقة التحلل الذى يحدث فى الجسم من السرطان، وذهب إلي أن ذلك فى النساء أكثر، وإذا كان السرطان باطنيا فإنه يسنمو بطيئا بطيئا، ولا فائدة من العلاج، أمنا السرطان الظاهري، إذا تدخل الطبيب منذ البداية حتى يكون الورم صغيرا وتجري عملية جراحية تستأصله، إذ تدخل الطبيب منذ البداية حين يكون الورم صغيرا وتجري عملية جراحية تستأصله، إذ يمكن إنقاذ المريض وها ما يطبقه أطباء السرطان الآن. وابن سينا أول من كشف العضلية الموجودة فى الإنسان المسماة بالإنكلستوما وكذلك المرض الناشئ عنها (الرهقان).

وعن عاداته، وعن الإمراض التي أصيب بها سابقا، وعن حالة عائلته الصحية، ومناخ بلاده، وغـير ذلـك مـن الأسـئلة المفيدة فى تشخيص للمرض، ثم يلاحظون البول، والنبض، ثم يشخصون المرض، ويحددون العلاج المناسب.ومن طرق الفحص كذلك ملاحظة لون الجلد، وملمـسه، وملتحمة العينين،وحالة إضجاع المريض فى فراشه،وحالة تنفسه وعمقه. ثم أنهم كانوا يتتبعون حالة المريض يوميا.

خامـسا : تصويبات طبية : عكف الأطباء فى الدولة الإسلامية على كتب اليونان ثم اخذوا يجربون نظرياتهم الطبية، فرأوا مخالفات كثيرة فصوبوها . ومن أشهرتصويباتهم: تصويبات ابن النفيس لنظرية جالينوس فى أن الدم يصل من البطين الأيمن إلي البطين الأيسر عن طريق مسام بينهما، حيث اكتشف هذا العالم أن الدم يمر فى دورة كاملة وأن جدار البطينين ليس فيهما مـسام فالدم يخرج من البطين الأيمن إلى الرئة عبر الشريان الرئوي وهناك ينقي ثم يتجه إلى الأذين الأيسر عبر الأوردة الرئوية ثم إلى البطين الأيسر ثم إلى أجزاء الجسم عبر الأورطي.

سادسـا : علـم الجراحة عند المسلمين: لم يكن يعلم العرب قبل الإسلام من الجراحة إلا الحجامـة والفصد والكي والبتر، فلما اتسعت الدولة الإسلامية، وانتقلت علوم الأقدمين عن طـريق المترجمين عرفوا علم الجراحة. وأول من ذكر علم الجراحة فى مؤلفاته أبو بكر الرازي فى أوائـل القرن الرابع الهجري، ولكن كانت الممارسة فى ذلك التاريخ بدائية، وكانت لابن سينا جهود فى هذا المجال، وبخاصة فى العمليات الجراحية لاستئصال الأورام الخبيثة.

وفى القـرن العاشر الهجري كانت الأندلس قد ازدهر فيها عدد من الأطباء أشهرهم أبو القاسم الزهراوى الذى انتعش علم الجراحة بسبب جهود الرائعة فى هذا المجال . وقد اشتهر الزهراوي فى الشرق والغرب بعلم الجراحة، وكانت له عمليات جراحية ناجحة. وقد صنف الزهـراوى العديـد مـن الكتب فى الجراحة وكان اول من استعمل ربط الشرايين لإيقاف النزيف، وأول من أدخل الحرير فى ربطه، حتى لا يسرع فى العفن إليه قبل التئام الجرح، وأول مـن اسـتخدم أوتار العود فى العمليات الجراحية، وهذه الأوتار مصنوعة من جدار أمعاء الأغـنام، ولا توال خيوط الحرير وأوتار العود تستخدم فى بعض العمليات الجراحية الحديثة. ومـن عمليات الزهراوى الجراحية عملية الحصي، وهو الذى ابتدع تلك العملية وقد انفرد

كذلك بجراحة الأسنان، تنظيفا وخلعا، أو نشر للزائد منها، أو تشبيك المتحرك فيها، كما أنه اشتهر بعملية قطع اللوزتين. وقد صنع الزهراوي أدوات طبية عديدة تخدم غرضه هذا.

سابعا : صلة العلاج النفسي بالأمراض العضوية: لقد لاحظ ابن سينا وجود صلة مباشرة فى بعض الأحيان بين الأمراض النفسية والأمراض العضوية، ولذلك كان يدعو إلي العناية بالجانب الأخلاقي فى التربية. فقد استطاع ابن سينا أن يكتشف الصلة بين الجسم والنفس، وأن يعالج مرضاه على أسس نفسية، وهذا ما لم يعرفه الطب الحديث إلا أخيرا(*). وكان الرازي يقول:" ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبدا بالصحة، ويرجيه بها وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس".

وخلاصة القول: إن الطب فى الحضارة الإسلامية اعتمد على صدق التجربة، وقوة الملاحظة، وكان مسطورا بحكم التجربة الدائمة، وكان الأطباء يمتهنون هذه المهنة للاحتساب، لا للاكتساب وقد أقيمت المستشفيات فى أنحاء الدولة الإسلامية لخدمة هذا الغرض، وقد بذل الخلفاء فى جلب الأطباء لتلك المستشفيات الكثير من مال الدولة.وكانت مهنة الطب تعتمد على المهارة والذكاء، بل كان أكابر الأطباء يمتحنون من يتصدي لهذه المهنة، ولا يجيزون إلا من كان مطلعا على علوم الأسبقين، مجريا لكثير من الأدوية.وقد ركز الأطباء المسلمون على عناصر الطب الرئيسية التى منها: الأغذية والأدوية، فضلا عن الارتباط بالعقيدة والإيمان.

(*) يروى فى هذا المقام أن الشيخ الرئيس ابن سينا عرض عليه ذات يوم مريض بداء أعيى الأطباء ففحصه ابن سينا، فلم يجد لديه علة يصح أن يشكو منها، فطلب استحضار شخص يعرف كافة بلاد الإقليم وقراه، لكي يعدد أسماءها على مسمع من المريض، وأمسك ابن سينا بيد المريض يجس نبضه فلاحظ اضطرابا فى النبض عند ذكر بلدة معينة، وعند ذلك طلب ابن سينا شخصا يعرف كل الأحياء والشوارع والمنازل فى تلك البلدة، واستمر يجس نبض المريض فلاحظ اضطراب عند ذكر منزل معين، ثم عند ذكر فتاة معينة من سكان هذا المنزل، وعند ذلك قال ابن سينا: "إن الغلام عاشق للفتاة المذكورة وعلاجه الزواج منها" وتم الزواج وكان الشفاء. وكان ابن سينا يري وجوب العناية بالجانب الخلقي فى التربية حتى ينشأ الطفل منذ نعومة أظفاره نشأة دينية حقا، ويقول فى ذلك:"إن للقدوة الحسنة والمعاشرة الطيبة أثرا كبيرا فى الخلق، ومن ثم يجب أن يكون الصبي فى مكتبه بين صبية حسنت آدابهم، إذ ينقل الصبي عن الصبي، وهو عنه آخذ".

بعض إسهامات المسلمين في مجال الكيمياء

اهتم العلماء المسلمون بالكيمياء (*) اهتماما بالغا، وتمكنوا من تقديم إضافات مهمة، وتتلخص إضافات علماء المسلمين فى مجال الكيمياء فى النقاط التالية:

أولا: المحافظة على التراث العلمي فى الكيمياء لكل من اليونان والهنود والفرس وذلك بترجمة هذا التراث إلي اللغة العربية ونقله إلي الأجيال التالية.

ثانيا: لقد أسس علماء المسلمين الطريقة العلمية الحديثة فى التفكير والبحث بالاستناد على المشاهدة والتجربة، مما جعلهم يكتشفون خطأ كثير من نظريات القدماء العلمية ويعدلونها.

ثالثا: استخدام علماء المسلمين وسائل جديدة فى إجراء التجارب العلمية لم يسبقهم إليها غيرهم، وتعد هذه الوسائل أسسا تستخدم فى مظاهر التقنية الحديثة.

وفيما يلي نقف مع هؤلاء العلماء وإنجازاتهم فى مجال الكيمياء.

جابر بن حيان شيخ الكيميائيين: هو أبو عبد الله جابر بن حيات المتوفى سنة ١٩٧هـ = ٨١٣م وقد عاش جابر فى بلاط الرشيد، واتصل بالبرامكة الذين كانوا يهتمون

(*) يبحث علم الكيمياء فى المادة التي تتغير فى المظهر أو فى الجوهر بفعل أو بتفاعلات خاصة كتحويل النحاس والرصاص إلي ذهب وفضة. ونقتبس هنا بعض التعريفات للكيمياء: يقول ابن خلدون:" علم الكيمياء ينظر فى المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة، ويشرح العمل الذى يوصل إلي ذلك".ويقول حاجى خليفة:" الكيمياء علم يعرف به طرق سلب الجواهر من الجواهر المعدنية وجلب خاصية جديدة إليها".ويقول عمر رضا كحالة:"الكيمياء علم يراد به سلب الجواهر المعدنية خواصها، وإفادتها خواصا لم تكن لها، والاعتماد فيها على الفلزات كلها، مشتركة فى النوعية، والاختلاف الظاهر بينها إنما هو باعتبار أمور عرضية يجوز انتقالها، ولفظة الكيمياء معربة من اللفظ العبراني وأصله(كيم يه) معناه أنه من الله". ولعل أقدم ما وصل إلينا عن نشأة علم الكيمياء هو وجودها فى مصر، حيث كانت صناعة الزجاج معروفة تماما، بل متقدمة عند قدماء المصريين ،وأنهم تفننوا فى صناعة التعدين، واستخراج الزيوت النباتية ،العطور والسكر...وغير ذلك.وقد ورث اليونانيون والرومان علم الكيمياء عن المصريين، ونبغوا فيه، ثم انتقل هذا العلم إلي المسلمين الذين اعتمدوا على التجربة والمراقبة والاستنتاج، ولم يكن ذلك معهودا من قبل كما أنهم حولوا هذا العلم من مجرد البحث فى المعادن وتحويلها من خسيسة إلي نفيسة إلي استخدام الكيمياء فى مجالات الطب وذلك ما لم يفعله القدماء. وكانت مدرسة "جنديسابور" بداية الانطلاق لعدد من الأطباء الذين أفادوا من علم الكيمياء، ونقلوه إلي البلدان الإسلامية المختلفة بعد أن أصبحت جنديسابور جزءا من أرض الإسلام. وتنبغي الإشارة هنا إلي أن خالد بن يزيد(الأموي) قد ترجم عددا من كتب اليونان كان منها ما يخص الكيمياء، مما جعل العلماء يعدون خالدا أول من تبنى علم الكيمياء من علماء المسلمين، وقد نبغ بعد ذلك فى مجال الكيمياء: الإمام جعفر الصادق، وجابر بن حيان وغيرهم.

بالعلم والعلماء، وقد عرف بالإيمان والورع وأطلق عليه الأستاذ الكبير، وشيخ الكيميائيين فى الإسلام. تتلمذ جابر على يد الإمام جعفر الصادق، ولازمه، وتفقه على يديه ثم درس الكيمياء من مؤلفات خالد بن يزيد الأموي وعلى يد شيخه جعفر الصادق، ولما انتقل جابر إلي بلاط هارون الرشيد، ازداد اهتمامه بالكيمياء، وشجعه الخليفة على ذلك ، فصنف كتبا فى هذا المجال، اعتمد فى عرض مادتها العلمية فيها على التجارب، والاستقراء والاستنتاج العلمي، مما جعله صاحب المنهج العلمي الواضح، مخالفا بذلك مناهج علماء اليونان التى كانت تعتمد على التحليلات الفكرية الناقصة. وكان أبو بكر الرازى يكثر من ذكر جابر فى كتبه، ويصفه بالاستاذية، حيث كان يقول:" أستاذنا جابر بن حيان" ووصفه فى كتاب سر الأسرار بأنه" من أعلام العرب العباقرة، وأول رائد للكمياء".

وكانت الكيمياء تعرف آنذاك بعلم الصنعة، لأنها كانت كغيرها من الحرف التى لا تحتاج إلي علم غزير، ولا مراس طويل، وقد ألف جابر أول كتاب له بعنوان" الرحمة" تطرق فيه إلي تحويل المعادن إلي ذهب" ثم وضع بحوثا كثيرة ركز فيها على التجربة وكانت الكيمياء تعرف فى عصره باسم" علم جابر" أو "صنعة جابر". ومن نصائحه لطلابه:" أول واجب أن تعمل وتجري التجارب، لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل إلي أدني مراتب الإتقان، فعليك يا بني بالتجربة لتصل إلي المعرفة".

وقد بقيت مصنفات جابر التى جاوزت التسعين فى الكيمياء مصادر أساسية للعلماء الذين جاءوا بعده. وقد اهتدى جابر إلي" الماء الملكي" وهو الماء المكون من حامض الكلوريد وحامض النيتريك، وعرف بالملكي لأنه يذيب ملك المعادن وهو الذهب. ويعد جابر أول من استعمل الموازين الحساسة والأوزان الدقيقة فى تجاربه كالقيراط، والدانق، والدرهم، والمثقال، والأوقية، والرطل. وقد درس جابر بن حيان نظرية أرسطو القائلة بأن الفلزات تنشأ فى الأرض من اجتماع قوام وسط بين التراب والنار(الدخان) وقولم آخر وسط بين الماء والهواء وخالف جابر هذه النظرية قائلا:" إن الفلزات لا تتحد باتحاد القوامين مباشرة وإنما بتحول كل قوام إلي عنصر جديد، وباجتماع هذين العنصرين تتكون الفلزات، فالقوام الدخاني يتحول إلي كبريت، والقوام المائي يتحول إلي زئبق، وباجتماعهما تنتج فى باطن الأرض الفلزات. وسبق جابر بن

حـــيان العـــالم الإنجليزي" جون دالتون" المتوفي سنة ١٨٤٤م الذى قال بنظرية الاتحاد الكيميائي وهى اتصال ذرات العناصر المتفاعلة بعضها ببعض فقد وصف جابر (الزنجفر) فى تجـــربته المـــشهورة: زئبق+ كبريت = زنجفر . والزنجفر حجر أحمر تكون من اتحاد جزيئات الزئبق والكبريت بعد تحلل كل منهما غلي تلك الجزيئات أو الدقائق المتناهية فى الـــصغر. وهذه النظرية الذرية من أعمال جابر، وليست من بنات أفكار جون دالتون، لكن الأخير طورها بعد عشرة قرون، ونسبت إليه على أنه مبتدعها.

ويمكـــن تلخيص إنجازات جابر بن حيان فى حقل الكيمياء العامة كما ذكرها جابر الشكري فى كتابه الكيمياء عند العرب على النحو التالي: تحضير حامض النيتريك المعـــروف بزيت الزاج. وتحضير ماء الذهب أو الماء الملكى بإضافة حامض النيتريك إلي حامض الكلوريديك.وتحضير الصودا الكاوية، وكربونات الصوديوم والبوتاسيوم.وتحضير كـــربونات الرصـــاص(الرصاص الأبيض).وتحضير الزنجفر (كبريتيد الزئبقيك). ودراسة خـــواص الـــزئبق ووصفه بإتقان . ودراسة خواص الفضة وأيوناتها . واكتشاف طريقة فحـــص أيـــون النحاس، حيث عرف أن مركبات النحاس تكسب اللهب لونا أزرق. وينسب إليه تحضير الكحل، وحامض الخليك، وحامض الليمون بصورها النقية.ودراسة الـــسموم وقد وصف كتابا فى ذلك بعنوان(السموم).وتصنيف وشرح لأفضل الأجهزة والأدوات المختـــبرية المهمـــة، كالمـــواقد والأفـــران، وتعـــديل الحـــرارة بحيث تلائم التجـــربة.وتعـــزى إلـــيه عمليات جديدة لتحضير الفولاز وتنقية المعادن.وإيجاد أصباغ مستخلـــصة مـــن النباتات لصبغ الجلود، ومواد جيدة النوعية للدباغة نفسها.وعمل فى حقـــل الأصباغ الصناعية، وعرف ماهية الشب، وغيره من الأملاح الأخرى، فى تثبيت الـــصبغ على النسيج(القماش) المثبتات.وحضّر مواد تشبه الذهب مثل كبريتيد النحاس تـــستخدم بـــدلا من الذهب الخالص، فى كتابة وزخرفة المخطوطات الثمينة.ويقال إنه توصل إلي تحضير أنواع الطلاء التى تقي الثياب من البلل وتمنع الحديد من الصدأ.

وإذا كنا بصدد إنجازات جابر فى علم الكيمياء فمن الضروري التنبيه على أهم عناصـــر مـــنهجه العلمـــي كما ذكرها "هولمبارد" فى كتابه الكيمياء حتى عصر دالتون وهـــى:أنه ينبغي معرفة سبب القيام بأي تجربة علمية قبل الشروع فى بدئها، وإن يكون

لـــدي المجرب العلم النظري عن التجربة أولا، ثم يبدأ فى التطبيق العلمي مع عدم إغفال المنهج الرياضي فى التجارب المعملية. ثم يتجنب العالم ما هو مستحيل أو عقيم، ويتخير المكان والزمان المناسبين لإجراء العملية وأن لا يتسرع فى إصدار النتائج، وعليه أن يكون صبورا، وأن يتابع الظواهر التى تطرأ على التجربة ويسجل كل ذلك بدقة.

وأخيرا تجدر الإشارة إلي أن جابر بن حيان كان من هؤلاء العلماء الذين يحثون علــى دراســـة القرآن الكريم، والسنة النبوية وكان يقول لتلاميذه:[يجب أن تدعو الله تبارك وتعالي أن يعينكم على تجربتكم كما يلزم الصبر والمثابرة].

ولعـــل دعوة جابر إلي دراسة الكتاب والسنة وإلي الاستعانة بالله والصبر تؤكد معـــنى ينبغـــي أن يظهر للأجيال التالية، وهو أن المسلم فى كل أحواله لا بد أن يكون مرتبطا بخالقه، وألا ينسي الهدف الذى من أجله خلق، وأن يقوم بالأسباب، ويعتقد أن الوصول إلي النتائج ما هو إلا نوع توفيق من الله عز وجل.

و لم يـــزل جابـــر بن حيان شهرته الواسعة فى العالم الإسلامي اليوم إلا بعد أن كشف الأوربيون أنفسهم عن تراث هذا الرجل، وعكفوا على دراسته، واتخذوه نبراسا لهم فى مجال العلوم التجريبية، وبخاصة علم الكيمياء. ويكفي للتدليل على ذلك أن أغلب كتبه منثورة فى مكتبات أوربا إلي اليوم.

أبـــو بكر الرازي وعلم الكيمياء: يعد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفي سنة ٣٢٠هـــ=٩٣٢م واحدا ممن تتلمذوا على مصنفات جابر بن حيان، بل كان يقول عـــنه"أستاذنا جابر". والرازي موسوعة علمية فى الطب والكيمياء والهندسة والفلسفة، والفلك وكانت لديه قدرة فائقة على التأليف فى هذه العلوم، حتى إن مؤلفاته فاقت المائة والـــثمانين مؤلفا فى هذه الفروع، وغيرها، ومن شدة ذكائه أنه حضر ذات مرة مجلس الوزيـــر أبي القاســـم بن عبد الله، وكثر الحديث بين الجالسين فى علم الطب، حتى قال أحدهم:(إن العلل من مواد تكون قد اجتمعت على مر الأيام والشهور، وما يكون هذا سبيل كونه لا يكاد أن يبرأ فى ساعة بل يكون فى مثل ذلك من الأيام والشهور حتى يتم بـــرؤ العلل)، فعارض الرازى ذلك القول بأن هناك من العلل ما يجتمع فى أيام وتبرأ فى ساعة، فتعجب الحاضرون وطلب الوزير منه أن يكتب فى ذلك، فبادر من ليلته ليكتب

كتابا من سبعة وعشرين بابا بعنوان"برء الساعة". ونستطيع تلخيص ما قدمه الرازى فى مجال الكيمياء فى أنه صنف كتبا فى الكيمياء على غرار كتب جابر بن حيان، تجنب فيها أخطاء أستاذه جابر، واهتم فيها بالتنظيم واستعمال المصطلحات الدقيقة، مع سهولة فى العرض. ووصف التجارب العلمية والتفاعلات الكيميائية بدقة .واعتبر التجربة فى الكيمياء أساس علميا لا بد منه. وحضر بعض الأحماض مثل حامض الكبريتيك الذى سماه العالم الغربي (ألبير): كبريت الفلاسفة.واعتبر المستحضرات الكيميائية من الطب، وطبق نتائج هذا العلم على علاجات المرضي. وحضر الكحول بتقطير المواد السكرية والنشوية المتخمرة واستخدام الكحول فى الصيدليات لاستخراج العقاقير.وقاس الوزن النوعي لعدد من السوائل مستخدما ميزانا خاصا سماه(الميزان الطبيعي). واستخدام أجهزة ومواد كيميائية كثيرة، وقام بتجارب عديدة مثل: التنقية والتقطير، والتصعيد، والتكليس، والتشميع، والتبلور.وفرق بين الملح الحلو(ملح الطعام) والملح المر(كبريتات الماغنسيوم التى استعملت مسهلا، ولا تزال كذلك إلي اليوم. وهو أول من استخدام الفحم الحيواني فى قصر الألوان، ولا يزال هذا النوع مستعملا فى إزالة الألوان.وأول من ميز بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم.وحضر الجبس من حرق كبريتات الكالسيوم المائية.

إن منهج الرازي فى الكيمياء ينقسم إلي ثلاثة أقسام أساسية هي: معرفة العقاقير المستخدمة فى علاج المرضي. ومعرفة الآلات المستخدمة فى العمليات الجراحية.وشرح التجارب بتبيين الخطوات التى يقوم بها الكيميائي حتى يصل إلي النتيجة المطلوبة.

ومن أشهر كتب الرازي فى الكيمياء كتابه(سر الأسرار) الذي قال فى مقدمة كتابه سر الأسرار: "شرحنا فى هذا الكتاب ما سطره القدماء من الفلاسفة مثل أغاثا ديموس، وهرمس، وأرسطوطاليس، وخالد بن يزيد بن معاوية، وأستاذنا جابر بن حيان، بل وفيه أبواب لم ير مثلها، وكتابي هذا مشتمل على معرفة معادن ثلاثة: معرفة العقاقير، ومعرف الآلات، ومعرفة التدابير (التجارب).

ويعد كتاب سر الأسرار من أهم الكتب التى اعتمد عليها الأوربيون فى مدارسهم وجامعاتهم زمنا طويلا، والمنهج الذى رسمه الرازي فى مقدمة هذا الكتاب يعد

منهجا علميا دقيقا، فهو يبدأ بوصف المواد التي يشتغل بها، ثم يصف الأدوات والآلات التي يستعملها، وبذلك يصف الطريقة التي يتبعها في تحضير المركبات، كما يشرح كيفية تركيب الأجهزة المعقدة، ويدعم شروحه بالتعليمات التفصيلية الواضحة، وهذا المنهج يقرب من المنهج الذى يسير عليه العلماء في العصر الحديث.

أبو منصور الموفق وجهوده في مجال الكيمياء: هو أبو المنصور الموفق على الهراوي الفارسي، عاش في القرن الرابع الهجري وعاصر الأمير منصور بن نوح الساماني الذى حكم فيما بين سنتي (٣٥٠- ٣٦٥هـ) وكان من أقرب الناس إليه، وذاع صيته بين الناس. واهتم الموفق في مجال الكيمياء بالأمور المتعلقة بحياة الناس اليومية، مثل الحصول على مادة لاحمة للعظام أو مادة تستعمل لصبغ الشعر وغيرهما أما المادة اللاحمة للعظام، فقد أجري تجربة علمية بسيطة، وذلك بأن أخذ مقدرا من الجبس وسخنه حتى تحول إلي جير ثم أضاف على الجير زلال البيض، فتكون لديه مادة لصق قوية تفيد كثيرا في علاج الكسور، أما بالنسبة لصبغ الشعر فيأخذ قليلا من النحاس عرضه للهواء كي يحصل على أوكسيد النحاس(أخضر اللون)، ثم سخن أوكسيد النحاس بشدة فتحول إلي مادة سوداء تستعمل ليكسب الشعر لونا أسود لامعا. ولقد درس الموفق عن قرب كلا من مركبات النحاس ومركبات الرصاص؛ لأن هذين المركبين من أهم المركبات التي يستخدمها الجمهور في الحياة اليومية، ومن دراسته لهذين المركبين عرف أنهما سامان. والجدير بالذكر إن إقليم أصفهان اشتهر بأفضل أنواع السموم نتيجة تصنيع الأهالي الزاج الأزرق والرصاص الأبيض. كما اهتم أبوا لمنصور الموفق بدراسة خواص الزئبق لأهميته وكذلك طريقة تحضير الأدوية بالتقطير والتصعيد كما تطرق لعلمية تقطير ماء البحر ويذكر أ. ج. هولمبارد أن أبا المنصور الموفق قد قدم وصفا لأوكسيد الزئبق وأنه مسحوق أحمر نقي من الشوائب كما حضر حامض السليسيك الذى يحصل عليه من غابات الخيزران، واهتم بكيفية تحضير العقاقير بالتقطير والتصعيد وكذلك تقطير ماء البحر. ويعد أبو المنصور أول كيميائي استطاع أن يفرق بوضوح بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم .

لقـــد أفاد الموفق من ابتكاراته الكيميائية من الناحيتين الاجتماعية والمادية، فقد كـــان يـــدرس ويمحص وعندما يحضر دواء يمكن استخدامه فى الحياة اليومية يسرع إلي تقديمـــه للجمهـــور كي يشترونه فيستفيد من ثمنه فى شراء أجهزة ومواد أخري، ومن الواضح أن الموفق كانت اهتماماته منصبة على الكيمياء الصناعية حيث ركز على تحضير المواد التى يمكن ترويجها أمام الجمهور؛ لذا يمكن أن يعد الموفق مؤسس الكيمياء الصناعية الـــتى لهـــا فى الآونة الأخيرة مكان مرموق فى المناهج الجديدة فى جامعات العالم. وكان الموفق يحب الأسفار فقد زار معظم أرجاء الدولة الإسلامية باحثا عن العلماء الكبار لكي يتتلمذ على أيديهم فكان حجة فى المعارف اليونانية والسريانية والهندية والفارسية لذا فإن كتابه "الأبنية فى حقائق الأدوية" يعد كتابا شاملا على المعلومات التى تناولتها الحضارات الأخـــرى، فالكتاب يشتمل على ما يقرب من(٥٨٥) دواء منها (٤٦٦) مستخرجة من النبات و(٧٥) من المعادن و(٤٤) دواء مشتقا من مشتقات حيوانية، لذا فإن هذا الكتب يشتمل على معظم العقاقير الضرورية. وأخيرا فإن أبا المنصور الموفق مع قلة كتاباته كان يمتاز بالدقة والجودة، وقد بلورت كتاباته الطريقة العملية فى تحضير كثير من العقاقير التى تستخدم آنذاك، فله الفضل فى تطوير المنهج التجريبي والكيمياء الصناعية.

وللشيخ الرئيس ابن سينا أثر فى الكيمياء ، فقد حذا ابن سينا حذو أساتذته الـــسابقين مـــن أمثال جابر بن حيان وأبي بكر الرازي، وكان يعد الكيمياء من الطب، ويستخدم تجاربه الكيميائية فى مجال الطب. ولعل أظهر ما عرف عن ابن سينا أنه أبطل نظرية تحويل المعادن الرخيصة إلي معادن ثمينة مثل الذهب والفضة، وسد بذلك بابا كان يـــستخدمه الدجالـــون لابتزاز أموال الناس. كما أنه شرح مؤلفات اليونان، ومؤلفات العلماء السابقين عليه، وعلق عليها. وكان **للطغرائي** أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علـــى الاصبهاني المتوفى سنة ٥١٥هـــ=١١٢١م **جهوده فى الكيمياء** ،فصنف فيه عدة كتب من أشهرها كتاب جامع الأسرار وكتاب المصابيح والمفاتيح الذى ضمنه نظرياته الكيميائية التى يكثر استعمالها فى النظريات الحديثة.ومن أشهر القضايا التى اهتم بعرضها فكـــرة تحويل المعادن الخسيسة إلي ذهب وفضة، وحاول الرد على ابن سينا معتمدا فى ذلك على المنطق والجدل، غير أن جدله لم يستند إلي أساسا علمي.

أمـــا عـــز الدين أيدمر على الجلدكي من علماء القرن الثامن الهجري(الرابع عشر الميلادي) فقد كان عالما بالكيمياء فلم يترك كتابا عثر عليه إلا درسه، وعلق عليه، وكـــان يـــتخذ من بيته مدرسة يرد إليه فيها طلاب العلم. واهتم الجلدكي بتاريخ علم الكيمـــياء، واشتهر بتعليقاته وتفسيراته لبعض النظريات الكيماوية الغامضة، وقد استنتج من دراسته لكتب الأسبقين من علماء الكيمياء ومن تجاربه الكيميائية الدقيقة: أن المواد الكيميائـــية لا تـــتفاعل مع بعضها إلا بأوزان معينة(وكانت هذه الفكرة اللبنة الأساسية لابتكار قانون النسب الثابتة فى الاتحاد الكيميائي الذى نسب إلي "جوزيف براوست" فى القـــرن الـــثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي. وكان قانون النسب الثابتة الذى ابتكـــره الجلدكـــي أساســـا اعـــتمد عليه كل من جوهان كبلر، وجاليليو، ونيوتن فى دراســـاتهم. ومـــن ابتكارات الجلدكي: استخدام الكمامات الواقية فى معامل الكيمياء، ووصف بدقة طريقة الوقاية من خطر استنشاق الغازات الناتجة عن التفاعلات الكيميائية. وقد طور الجلدكي صناعة الصابون المعروفة آنذاك، وطور طريقة التقطير، وهو أو ل من قـــال إن المادة تعطي لونا خاصا بها عند إحراقها. وصنف هذا العالم نحو عشرين كتابا، قـــدم فيها نظريات علمية اعتمد عليها الغرب كثيرا ، ويكفي أنه أول من فصل الذهب عـــن الفضة بواسطة حمض النيتريك الذى يذيب الفضة، ويترك الذهب، وهذه الطريقة هى التى لا تزال تستعمل إلي اليوم.

ويمكن القول: إن عطاء الأمة الإسلامية ظل ممتدا أكثر من ثمانية قرون فى مجال الكيمياء، فهل فى النهضة الأوربية الحديثة مثل هذا التواصل؟

بعض إسهامات المسلمين في مجال الرياضيات

أضـــاف علماء المسلمين في مجال الرياضيات(*) إضافات واسعة نلحظها في ما يلـــي: **أولا**: ترجمة علوم اليونان، وعلوم الهنود، وعلوم الفرس، وغيرهم إلي اللغة العربية وبذلك حافظوا على التراث العلمي الإنساني.

ثانيا: الاعتماد على الملاحظة والقيام بالتجارب والقياسات، فشككوا في الكثير من نظريات قدماء اليونان الخاطئة وعدلوها، وابتكروا فيها.

وقد نبغ في الرياضيات عدد من العلماء من أمثال: الخوارزمي، وثابت بن قرة، والكندي، والبتاني، وأبو الوفاء، والبيروني، وعمر الخيام، والكرخي، وابن الهيثم، ونصير الدين الطوسي، والكاشي، والعملي، وغيرهم.

وسيقتصر حديثنا فيما يلي على نماذج ممن لهم أثر بارز في الرياضيات.

الخوارزمي وأثره في مجال الرياضيات: هو محمد بن موسي الخوارزمي، الذى عـــاش في بغـــداد مـــنذ سنة ١٦٤هـــ إلى سنة ٢٣٥هـــ. وقد لمع في مجال الرياضيات والفلـــك في عهد المأمون؛ الذي عينه لنبوغه رئيسا لبيت الحكمة. وقد طور الخوارزمي علم الجبر كعلم مستقل عن الحساب، ولذا ينسب إليه هذا العلم في جميع أنحاء المعمورة.

لقـــد ابتكر الخوارزمي علم الحساب "اللوغاريتمات" وعمل لها جدول تعرف باسمه في أوربا حتى الآن، كما أضاف في علم الجبر إضافات واسعة، وكان سبب بحثه في هـــذا المجـــال هو محاولة إيجاد حلول لمسائل عملية واجهها المسلمون في حياقم اليومية كالميراث والتجارة، ويعد كتابه الجبر والمقابلة من أهم كتب الأصول في علم الجبر.

ومن هنا نلحظ أثر الفكر الإسلامي في العلوم العقلية، فلقد دفع الإسلام العلماء إلي الـــبحث في المـــسائل الـــتي تفيدهم في حياقم العملية، كمسائل الميراث، وتقسيم الممـــتلكات والـــتجارة. لقـــد طلب الخليفة المأمون من الخوارزمي أن يؤلف كتابا في

(*) اهـــتم المـــسلمون منذ الصدر الأول للإسلام بالرياضيات، وكان من مظاهر ذلك استخدام الهندسة في تحديد اتجاه القبلة، ومن هنا ارتبطت الرياضيات بالفكر الإسلامي، وأصبحت مجالا يتجه فيه العلماء بالبحث والدراسة. ويمكن أن نعد القـــرنين الـــثالث والرابع الهجرتين الذهبيين للرياضيين المسلمين، الذين يدين لهم العالم بالكثير؛ لحفظهم التراث القديم وتنميته، ولابتكاراقم الجلية، في هذا المجال، وفي هذه الفترة نفسها كانت الرياضيات في أوربا قد أصيب بالانحطاط.

الرياضــيات يسهل الانتفاع به فى كل ما يحتاج إليه الناس، فيقول الخوارزمي فى مقدمة كتاب"الجبر والمقابلة" : "وقد شجعنا ما فضل به الإمام المأمون أمير المؤمنين مع الخلافة الــتي حاز لها إرثها وأكرمه بلباسها، وحلاه بزينتها من الرغبة فى الأدب وتقريب أهله وإدنــائهم، وبسط كنفه لهم، ومعونته إياهم، على إيضاح ما كان مشتبها، وتسهيل ما كــان مستوعرا. على أني ألفت على كتاب الجبر والمقابلة كتابا مختصرا حاصرا للطيف الحــساب وجليله، لما يلزم الناس من الحاجة إليه فى مواريثهم ووصاياهم، وفى مقاسماتهم وأحكامهم وتجاراتهم، وفى جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأراضي وكري الأنهار والهندســة وغــير ذلك من وجوهه وفنونه، مقدما لحسن النية فيه راجيا لأن ينزل أهل الأدب بفضل ما استودعوا من نعم الله تبارك وتعالي وجليل آلائه، وجميل بلائه، عندهم منزلته، وبالله توفيقي فى هذا وفى غير هذا، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم".

ومــصنفات الخوارزمي فى مجال الرياضيات كثيرة نذكر هنا بعضها على سبيل المــثال كــتاب وضــح فيه طريقة الجمع والطرح، ورسالة عن النسبة التقريبية وقيمتها الرياضية، برهانا آخر لنظرية فيثاغورث مستخدما مثلثا قائم الزاوية ومتساوى الساقين، ورسالة شرح فيها طريقة إجراء العمليات الحسابية، هذا غير كتاب الجبر والمقابلة الذى يعد من أهم كتبه فى هذا المجال.

ولقــد قصد الخوارزمي بالجبر إضافة حدود موجبة تساوى فى كميتها الحدود السالبة إلي طرق المعادلة، وبالمقابلة: جمع الحدود المتشابهة، واختزالها ما أمكن.وفى المثال التالي توضيح هذه الفكرة: ٢س^{٢}+ ٥س+٦ =٦- ٢س+ ٣س^{٢} . ففى حالة الجبر إضافة (٢س) لكل من طرفي المعادلة (+٢س) أو بمعنى آخر نقل الحد السالب إلي الطرف الثاني فيصبح موجبا(فتكون النتيجة) ٢س^{٢} +٧س =٣س$^{٣ +٦-}$ ٣س^{٣} .أما فى حالة المقابلة فهى عملية الحذف والاختزال بنقل الحدود المتشابهة(فتكون النتيجة) ٢س$^{٣ +٧س -}$ ٣س^{٣}

الــبيروني وأثره فى مجال الرياضيات: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني(عاش بين ٣٦٢- ٤٤٠هـــ) وقيل توفي سنة ٤٢١هـــ، ولمع نجمه بين العلماء، واشتهر بالتبحر فى علــوم كــثيرة كالرياضيات، والفلك والفلسفة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ. ويعد البيرونى من الذين وضعوا الأسس الأولي لعلم حساب المثلثات، بل يعد أول من فكر فى

"نظرية الجاذبية" على عكس ما هو مشهور من أن العالم الإنجليزي" إسحاق نيوتن" المتوفي سنة ١٧٢٧م هو الذى فكر فيها، وكان البيرونى يستخدم التجربة والقياس فى بحوثه، ومن تجاربه الجليلية: ما فعله لقياس الوزن النوعي للعناصر كالذهب والزئبق والنحاس والحديد والقصدير والرصاص والياقوت والزمرد واللؤلؤ وكانت قياسات البيرونى على درجة كبيرة من الدقة. وقد اهتم البيروني بالتعليق على مؤلفات معاصريه(•) فى مجال الرياضيات، مما كان له أثره فى ابتكاراته الرياضية، كما أنه صنف كتبا كثيرة فى هذا المجال.

الكندي وأثره فى الرياضيات: اشتهر أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى المتوفي سنة ٢٥٢هـ =٨٦٧م الفلسفة، لكنه يري أن العلوم الفلسفية هى الرياضيات والمنطق والطبيعيات والفيزياء والسياسة وعلم الاجتماع. ومن هنا نبغ فى هذه العلوم، وغيرها. وقد عهد الخليفة المأمون إلي الكندي بمهمة ترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من مؤلفات اليونان، فاهتم بذلك ودرس نظريات علماء الهند كذلك ،و علق عليها، وصنف كتبا ورسائل كثيرة بلغت(٢٦٥) مؤلفا منها فى الحساب أربعة عشر مؤلفا، وفى الهندسة نحو اثنين وثلاثين مؤلفا. فمن كتبه ورسائله فى الحساب:" كتاب مبادئ الحساب، وكتاب فى علم الأعداد، وكتاب فى استعمال الحساب الهندي، ورسالة شرح الأعداد التي استعملها أفلاطون فى سياسته. وكتب الكندي فى الهندسة كثيرا، وكان يري أن الإنسان لا يكون فيلسوفا إلا إذا كان عالما هندسيا، وهو بهذا يتفق مع أفلاطون. ومن كتبه فى ذلك :رسالة عن علم الهندسة الكروية، ورسالة فى الهندسة المثوية.

ثابت بن قرة وأثره فى الرياضيات: كان أبو الحسن ثابت بن قرة بن عرفان الحراني المتوفي سنة ٢٨٨هـ= ٩٠١م من أعلام عصره، وقد اشتهر بتبحره فى علوم كثيرة مثل الرياضيات، والطب، والفلك، والفلسفة، وكان يجيد مع اللغة العربية عدة لغات منها: العبرية، اليونانية، السريانية. وكان الخليفة المعتضد العباسي يقدر ثابتا

(•) من المؤلفات العلمية التي علق عليها:"مساحة الجسم المكافئ" للشيخ ابن سهل ويجن بن رستم القوهي(٣٨٠ هـ)"ورسالة أبي الوفاء محمد بن محمد البوزجاني فى إقامة البرهان على الدائرة"، وكتاب" الكافى فى الحساب" لأبي بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخي، كما علق على كثير من كتب الخوارزمي فى الجبر.

ويحترمه، ويجالسه، ويستمع إليه وكناه أبا الحسن، ولم يكن من أولاده من اسمه الحسن. وابتكر ثابت علم حساب التفاضل والتكامل، كما استوعب مؤلفات اليونان، وعلق عليها، وابتكر معادلة الأعداد المتحابة والمربع السحري. والأعداد المتحابة تعني التي يكون مجموع قواسم كل منها مساويا للأخر، فالعدد (٢٨٤) يقبل القسمة على (١، ٤،٢، ٧١، ١٤٢) ومجموعها يساوي(٢٢٠) والعدد (٢٢٠) يقبل القسمة على(١، ٢، ٤،٥، ١٠، ١١، ٢٠، ٢٢، ٤٤،٥٥، ١١٠) ومجموعها متساويا. وصنف أكثر من خمسين كتابا في فروع العلوم المختلفة وكان لأفكاره صدي كبيرا في الغرب، الذين لقبوه بمهندس الغرب.

٦	٧	٢
١	٥	٩
٨	٣	٤

البتاني وأثره في الرياضيات: يعد أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني المتوفي سنة ٣١٧هـ =٩٢٩م من أشهر علماء الفلك والرياضيات، وهو الذى خدم علم الفلك بأفكاره الرياضية. وضع البتاني علم حساب المثلثات، وله ابتكارات غاية في الدقة منها: نظريات الجيب، وقد صحح من خلال هذه النظريات فكرة بطليموس التي تقول: إن الجيب يدل على الوتر، فبين البتاني أن ما يقابل الجيب هو نصف الوتر، ثم ابتكر مفهومات جيب التمام، والظل، وظل التمام، وألف جداول دقيقة لظل التمام، كما استنتج العلاقة بين أضلاع المثلث الكروي وزواياه، وخطأ نظرية بطليموس في اكتشاف الأوج الشمسي وحدده بـ١٧ درجة، ووضع جداول صحيحة لحركة الشمس والقمر، والكواكب الأخرى. وقد صنف البتاني أحد عشر كتابا في الرياضيات والفلك من أشهرها" الزيج الصابئ" وهو كتاب يحوي كثيرا من العمليات الحسابية، والقوانين العددية، والجداول الفلكية...الخ. وقد ترجمت أعمال البتاني إلي اللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي في أوربا وبقيت كتبه علامة بارزة على طريق التقدم العلمي.

أبو الوفاء اليوزجاني وأثره في الرياضيات: اشتهر أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيي بن إسماعيل بن العباس اليوزجاني الحاسب المتوفي سنة ٣٨٨هـ =٩٩٨م، بشروحه وتعليقاته على مؤلفات إقليدس، وديوفانتوس، والخوارزمي، وكان عالما بالرياضيات والفلك. وابتكر طريقة جديدة لحساب جداول الجيب، كما عرف- ولأول مرة- الصلات في علم حساب المثلثات بين الجيب والظل القاطع. ولليوزجاني مصنفات تربو

علـــى العـــشرين فى الهندســـة وحـــساب المثلثات والفلك، وتفسير نظريات نظريات ديوفانـــتوس، وإقلـــيدس، وغيرهما. وقد ظلم الغرب هذا العالم كثيرا، فقد نسب أحد علمـــائهم وهو "ريجيومونتانوس" نظريات اليوزجاني فى علم حساب المثلثات إليه. كما ادعـــي "تيخوبراهي" الدانماركي أنه أول من عرف الخلل فى حركة القمر، فى حين أن اليوزجاني قد اكتشف ذلك فى القرن الرابع الهجري، ووضع معادلة مثلثية توضح مواقع القمر سماها"معادلة السرعة".

بعض إسهامات المسلمين في مجال الفيزياء

أســـهم علماء المسلمين في مجال الفيزياء(*)إسهامات رائدة سبقوا بها الغرب . وقد برز في هذا العلم في القرون الهجرية الأولى عدد من العلماء منهم : الحسن بن الهيثم، وأولاد موسى بن شاكر، وابن سينا، والبيروني، وأبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي والخازني وغيرهم. وفيما يلي لمحة عن إنجاز بعض هؤلاء العلماء في مجال الفيزياء.

بنو موسى بن شاكر وجهودهم في مجال الفيزياء: قام أبناء موسى(***) الثلاثة ببـــناء مرصـــد كبير على طرف جسر بغداد، فكانت أرصادهم مرجعا لمن بعدهم من العلمـــاء ، وقد قام الثلاثة بحسابات كثيرة، وصنفوا كتابا جليل القدر عرف" بحيل بنى موسى" في مجلد واحد، يحتوى على مائة تركيب ميكانيكى. وقد طبع كتاب " الحيل " مؤخـــرا بمعهـــد التراث العربي بجامعة حلب، وخرج بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجـــري ضـــمن سلسلة مصادر ودراسات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية (تاريخ التكنولوجيا — رقم ٣) .

(*) "الفيزياء" أو علم الطبيعة هو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل ، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق ، وغير ذلك.

(***) ظهر موسى بن شاكر في بلاط المأمون الخليفة العباسي ، وكان موسى مهتما بشئون الفلك، وقد خرج في بعثة من قبل المأمون لقياس محيط الكرة الأرضية، وكان ذلك في منطقة " سنجار" وهى فضاء بالقرب من الموصل ، وقد نجح هـــو والبعثة في تحديد رقم قريب من الرقم الحديث. وقد توفى موسى في سن مبكرة تاركا أولاده الثلاثة محمد، وأحمد، والحسن، والذين رعاهم المأمون ، ووجههم إلى نفس وجهة أبيهم ، فنبغوا في مجالات عدة منها الفيزياء.

ومما يذكر لأبناء موسى بن شاكر أن محمدا اشترك مع أخيه أحمد في بناء ساعة نحاسية الحجم ، أفاد منها معاصروه ، ويبدو أن أحمد كان متقنا في الهندسة الميكانيكية، حتى إنه اخترع تركيبا ميكانيكيا يسمح للأوعية أن تمتلئ تلقائيا كلما فرغت ، والقناديل تـــرتفع فـــيها الفتائل تلقائيا كلما أتت النار جزء منها، ويصيب منها الزيت تلقائيا ولا تنطفئ عند هبوب الريح عليها ، كما ابتكر آلة ميكانيكية للزراعة والفلاحة تحدث صوتا تلقائـــيا كلما اتفع الماء إلىحد معين في الحقل عند سقيه ، واخترع عددا من النافورات الـــتي تظهر صورا متعددة النافورة بالمياه الصاعدة .والجدير بالذكر أن نظريات أحمد بن موســـى لا تـــزال تستخدم عند تصميم النافورات الحديثة، ويرجع الفضل له في صنع الآلات المترلية ولعب الأطفال، وبعض الالات المتحركة مثل الروافع المبنية على القواعد الميكانيكـــية. وقـــد صنف بنو موسى بن شاكر العديد من الكتب الأخرى يبحث في الالات الحربية وكتاب قياس المساحات المسطحة ، وكتاب حركة الفلك الأولى وغيرها.

ابـــن الهيثم رائد علم البصريات: ذاعت شهرة ابن الهيثم(*) بسبب ابتكاراته الرائعة في علم البصريات. ولقد أثبت ابن الهيثم عكس نظرية إقليدس وبطليموس في علم البصريات، تلك النظرية التي كانت تقول : إن العين ترسل أشعتها على الأشياء، فتظهر فقد أثبت ابن الهيثم بالتجربة العلمية أن الشعاع لا يصدر عن العين إلى الأجسام،ولكن الأجـــسام هـــي الـــتي ترسل أشعتها إلى العين فيتم إبصارها. ثم اهتم ابن الهيثم بالعين، فوصـــف عين الإنسان وصفا دقيقا، ورتب أقسامها،ورسمها بوضوح تام، ووضع لهذه الأقـــسام أسماء، أخذها عنه الطب الغربي. كما اهتم ابن الهيثم بالضوء، وأثبت بالتجربة انعكـــاس الـــضوء وانكساره ووضع قانون سير الأشعة سيرا كرويا، وقسم الضوء إلى قـــسمين: الأول: أضـــواء ذاتية وهى أضواء تشرق من الأجسام المضيئة بذواتها كضوء الشمس وضوء النار، والثاني: أضواء عرضية ، وهى التي تشرق من الأجسام غير المضيئة، وإنما تشرق منها إذا كانت بجوار الأجسام المضيئة بذواتها، أو المستضيئة بغيرها.

(*) أبو على الحسن ابن الهيثم المتوفى سنة (٤٣٠هـ=١٠٣٩م)، والعالم الموسوعي الذي برع في علوم كثيرة من أشهرها الهندسة والفلك والجبر والفيزياء .

ومن اكتشافات ابن الهيثم نظرية العدسات المكبرة بعد تجارب عديدة في ذلك كمـــا اكتشف أو وزن الجسم يختلف باختلاف كثافة الهواء الجوى ،وأثبت وزن الهواء الجـــوى قبل أن يعرف هذا في أوربا بخمسة قرون. ويمكن القول : إن اعتماد ابن الهيثم مـــنهج الاستقراء، والأخذ بالقياس،ثم الاعتماد علىالمشاهدة والتجربة له أثر في كثير من اكتشافات هذا العالم الذى اعتمد عليه الغرب،وعدوا أبحاثه واكتشافاته أساسا لنهضتهم في هذا المجال وقد بلغت مؤلفاته أربعة وأربعين مؤلفا.

ابن سينا والبيروني يسبقان نيوتن: لما نادى إسحق نيوتن في القرن الثامن عشر المـــيلادي بنظرية الجاذبية الأرضية، راح العالم يصفق لهذا العالم الذي اكتشف نظرية لم يُـــسبق إليها. والحق أن الفضل الأول في اكتشاف هذه النظرية يرجع إلى عالمين بارزين من علماء الإسلام هما: الشيخ الرئيس ابن سينا ، وأبو الريحان البيرونى، اللذان عاشا في القرنين الرابع والخامس الهجريين.ويرجع الفضل في تحديد قانون الحركة الأولى إلى هذين العـــالمين .فابن سينا هو القائل في كتابه الاشارات والتنبيهات:"إنك لتعلم أن الجسم إذا خُلى وطباعه، ولم يعرض له من خارج تأثير غريب، لم يكن له بد من وضع معين وشكل معـــين ..".والـــبيروني هـــو القائل في كتابه "القانون المسعودي" :" الناس على الأرض منتصبوا القامات على استقامة أقطار الكرة ، وعليها أيضا نزول الأثقال إلى أسفل".

هـــبة الله بـــن ملكا البغدادى يسبق نيوتن: لقد سبق الفيلسوف(هبه الله بن ملكا) إسحاق نيوتن في قانونه الثالث القائل : إن لكل فعل رد فعل مساويا له في المقدار ومـــضادا لـــه في الاتجاه. فقد قال ابن ملكا في كتابه: "المعتبر في الحكمة" :" إن الحلقة المـــتجاذبة بـــين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر، ولـــيس إذا غلـــب أحدهما فجذبها نحوه تكون قد خلت من قوة جذب الأخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل ذلك الجذب.

الخازني وأثره في الفيزياء: صنف الخازني أبوالفتح عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٥٠ هـــ=١١٥٥م. سبعة كتب أشهرها"ميزان الحكمة " وسبق الخازنى تورشيللى في الإشارة إلى مـــادة الهواء ووزنه ، وأشار إلى أن للهواء وزنا وقوة رافعة كالسوائل ، وان وزن الجـــسم المغمـــور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وأن مقدار ما ينقصه من الوزن

يتوقف على كثافة الهواء. وبين أن قاعدة أرشميدس لا تسري فقط على السوائل ، ولكن تسري كذلك على العازات، وهذا مما ساعد على اختراع البارومتر (ميزان الضغط) فيما بعــد. واختــرع الخازني ميزانا لوزن الأجسام في الهواء والماء ، له خمس كفات تتحرك إحــداها علىــذراع مدرج. وتعرض للحديث عن العلاقة بين السرعة التي يسقط بها الجــسم والمسافة والزمن الذي يستغرقه، وهو بهذا سبق جاليليو وكبلر ونيوتن، وغيرهم ممــن وضعوا قوانين السرعة وعدوا أنفسهم أو المخترعين لها. ومن نظريات الخازني التي تــزال تدرس في المدارس والجامعات إلى يومنا هذا في علم الديناميكا (الحركية) نظرية الميل والانحدار ونظرية الاندفاع.

بعض إسهامات المسلمين في مجال الفلك

بــرز في علــم الفلك(*) عدد من علماء المسلمين مثل: أبي عبد الله محمد بن جابر البتاني(٣١٧هــ)، وأبي ريحان البيروني(٤٤٩هــ) ، والصوفي (٣٧٦هــ) ، والبوزجاني(٣٩٩هــ) والمجريطي(٣٩٨هــ) والكوهي(٤٠٥هــ) وغيرهم.

جهــود الــبيروني في مجال علم الفلك : اهتم البيروني بعلم الفلك اهتماما كبيرا معــتمدا علــى التجربة في جميع أبحاثه، ومن النتائج التي وصلت إلينا من خلال دراسته ورصــده لكــسوف الشمس وخسوف القمر. أن الشمس أكبر من الرض ، وأكبر من القمر، كما أن البيروني شرح بطريقة واضحة "الشفق والغسق" وحسب محيط الأرض بدقة فائقة. ومن آثار البيروني العلمية في مجال الفلك : :كتاب" القانون المسعودي" في الهيــئة والــنجوم، وكتاب" مقاليد علم الهيئة وما يحدث في بسيطة الكرة " ، وكتاب: منازل القمر" ، وكتاب: عن حركة الشمس ، وكتاب علم الهيئة، وكتاب رؤية الأهلة، وكتاب عن النجوم. كما أن للبيروني تعليقات كثيرة على مؤلفات العلماء الذين سبقوه في هذا المجال وغيره.

(*) ارتــبط المسلمون بالقرآن الكريم الذي لفت أنظارهم إلى التفكير في ملكوت السموات والرض، وتدبر خلق الله ، ومــن الآيات التي لفتت أنظار المسلمين إلى علم الفلك قوله تعالى(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)(الرعد: ٢).وكان العرب يسمون هذا العلم علم الهيئة،وهو من العلوم التي عرفوها منذ القدم ، ولما بدأت حركة الترجمة في القرن الثالث الهجري ، وظهرت كتب بطليموس في مجال الفلك، اهتم علماء المسلمين بدراسة هذا العلم والتصنيف له.

وقـــد برز في علم الفلك أبو الحسن الصوفي(٣٧٦هـــ=٩٨٦م) الذي اشتهر بنقده البناء لعلماء اليونان. وترجمت مصنفاته إلى لغات العالم المختلفة ، وقورنت بأعمال بطليموس ، فكانت تفوقها وإتقانا. وقد صحح الصوفي المقاييس الفلكية القديمة وعرّف بدقـــة مواضـــع النجوم ومجموعاتها ورصدها نجما نجما. **وأبو الوفاء اليوزجاني** الذيكان الـــيوزجاني أحد أعضاء المرصد الذى أنشأه شرف الدولة البويهي سنة ٣٧٧هـــ. وقد تمكن اليوزجاني من وضع شروح لكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك، كما حاول مثل أســـتاذه البـــتاني فصل علم حساب المثلثات عن علم الفلك. واهتدى إلى معادلة مثلثية توضح مواقع القمر بالنسبة إلى الأرض سماها (معادلة السرعة) . وقد ادعى تيخوبراهى الدنماركـــي أول مـــن كشف عن الخلل في حركة القمر. ومن مؤلفات اليوزجاني في الفلك: كتاب الزيج الشامل، وكتاب في الفلك ، وكتاب في حركة الكواكب.(والزيج) جـــداول فلكية لمعرفة الأيام والشهور والتواريخ.**وكان ابن يونس الصدفي** (٣٩٩هـــ= ١٠٠٩م) صاحب الزيج الحاكمي قد تمكن من دراسة جميع الخسوفات والكسوفات التى رصـــدت قـــبله. وقارن بينها، فوصل إلى نتيجة مهمة هى أن حركة القمر(سرعنه) في تـــزايد. ومن خلال كتابه الزيج الحاكمي أدخل تعديلات جوهرية على الأزياج السابقة علـــيه، وقام بتحقيق جداول هذا الزيج من خلال مرصده على جبل المقطم، وقد ترجم الزيج الحاكمي إلى اللغة الفرنسية سنة ١٨٠٤م. ويرجع إليه الفضل في اختراع الرقاص (البـــندول) الـــذى استعمل في الساعات الدقاقة ،وبذلك فإن نسبة اختراع الرقاص إلى جاليلـــيو(١٦٤٢م) تعد خطأ محضا ، فقد استخدمه ابن يونس قبل ذلك بستة قرون. **وكـــذلك أبـــو القاســـم المجريطي** الذي أدخل بعض التعديلات على الخريطة الفلكية لبطليموس. **وأبو سهل الكوهي** (٤٠٥هـــ=١٠١٤م) الذي عكف على كتب اليونان في الفلـــك ، وانتقد بعضها . وتمكن من اختراع عدد من آلات الرصد . **وابن الشاطر** المـــتوفى ســـنة ٧٧٧هـــ=١٣٧٥م الذي نال شهرة واسعة بين علماء عصره في المشرق والمغـــرب كعـــالم فلكي. ولقد صنع ابن الشاطر آلة لضبط وقت الصلاة سماها البسيط ووضعت في إحدى مآذن المسجد الأموي في دمشق.

الفصل الثالث

قراءة نقدية لكتاب
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز
الفصل العشرون (الأخلاق والعادات)

كتاب " **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** " للمستشرق الألماني آدم متز المتوفى سنة ١٩١٧م ، من أهم الكتب التي لقيت قبولا في المكتبة العربية المعاصرة ، وتلقفه الباحثون في مجال الحضارة الإسلامية بوصفه على لسان مستشرق ألماني اهتم بالدراسات الشرقية اهتماماً بالغاً ، واعتمدوا عليه كثيراً في بحوثهم العلمية ؛ و لم أجد منهم من قام بتحليل كلام آدم متز أو التثبت من صحة آرائه – على حد علمي - ؛ بل على العكس تؤخذ أغلب آراء هذا المستشرق من المسلمات التي لا تقبل الشك ، سوى بعض الإشارات الهامشية لمترجم الكتاب إلى العربية .

وزاد من ضرورة التصدي لهذا الموضوع بالبحث والدراسة ما قاله صاحب " موسوعة المستشرقين " : [وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات ، ومنها العربية بعنوان: "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" في جزأين ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد قام بهذه الترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة الذي أساء إلى الأصل إساءة بالغة، لأنه في معظم المواضع كان لا يترجم كلام المؤلف – وهو شرح موسع متسق – بل ينقل النص العربي الذي إنما يشير إليه المؤلف دون أن يترجمه .

ولهذا بدا الكتاب في ترجمته العربية هذه مجرد سرد لنصوص طويلة، فضاع عمل المؤلف الأصلي آدم متس (هكذا ترجمه عبد الرحمن بدوي) ، وصرنا بإزاء سلسلة من الاقتباسات غير المتسقة المعنى ولا المطردة الحجاج ، وهذا الصنيع هو

أسوأ ما يمكن أن يصنعه مترجم بمؤلف يترجم عنه ! ، ولهذا يحسن بالقارئ العربي أن يطرح جانباً هذه الترجمة العربية، وأن يرجع إلى ترجمة أخرى إن كان لا يعرف الألمانية .(٤)] .

فــإذا مــا وضعنا هذا القول إلى جانب ما قاله " أحمد أمين " في تصديره للنــسخة العربية التي ترجمها أبو ريدة تأكد ضرورة البحث في هذا الموضوع ؛ فقد ذكــر أحمد أمين – بعد مراجعته لهذا الكتاب في صورته العربية وثنائه على المترجم – أن مؤلفه قد تميز بدقة البحث وحسن الاستقصاء والاعتماد على المصادر الكثيرة المتنوعة وغربلتها واستخراج العجب والصبر على البحث ، والدأب في العثور على مــادة الموضــوع ، والإحاطة بنواحي الحضارة الإسلامية من سكان ومال وإدارة وتجــارة وعلــم وفن وسياسة واجتماع ، **وكشف نواحٍ من الحضارة غامضة أو مجهــولة وعالجهــا بصبر وأناة؛ وذلك من خلال جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضــوع مــن مصادر متعددة ، والاكتفاء بها ، من غير أن يدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل النادر** . وأخيراً يعلمنا هذا الكتاب – كما يذكر أحمد أمين في أثناء تصديره للكتاب – طرق البحث العلمي . وهذا الكلام يتناقض تماماً مع كلام "بدوي" والواقع الملموس هو وجود النسخة العربية بين أيدينا فضلاً عن صعوبة الحصول على النسخة الألمانية للباحثين العرب ، وبخاصة أن "بدوي" لم يقدم نصاً واحداً يؤكد ما وقع فيه أبو ريدة من خطأ في الترجمة .

وإذا سلمنا بقول بدوي السابق فنحن أما أمرين :

الأول : أن هذا الكتاب في نسخته العربية لا ينبغي تداوله ؛ لأنه نسب إلى غــير صاحبه ، أو لأنه ليس يحمل أي صفة للأمانة العلمية ، وهذا الكتاب دليل – من خلال كلام "بدوي" – على عدم نزاهة المترجم " أبي ريدة " ، بل فيه تشكيك

(٤) لم يحــدد بــدوي ما إذا كان اطلع على ترجمات أخرى أم لا ، كما لم يرشح أياً من هذه الترجمات، و لم يذكر عناوينها .

في ذمة " أحمد أمين " الذي أمر أبا ريدة بترجمة هذا الكتاب ، حيث وضع الأمر في غير أهله .

الـــثاني : أن النـــصوص التي يراها "بدوي " غير متسقة ، يمكن تجاهلها ، وعـــرض أفكار الموضوع ومع هذا ، فسنجد عدم الاتساق حتى في الأفكار ، بله النصوص ، وهذا يؤكد –في ظني – أن النسخة الألمانية التي كتبت بخط المؤلف لن تكون كما يصفها "بدوي " شرحاً موسعاً متسقاً.

وجدير بالذكر أن " أحمد أمين " بعد عرضه لمميزات المؤلف وكتابه ، وهو ما لا يقره " بدوي " إجمالاً – وهذا واضح من النص الذي سبق إيراده على لسانه – إلا أن أحمـــد أمـــين عـــرض جملة من المثالب أو المآخذ على هذا الكتاب ، لكنه عرضها بصيغة التضعيف كالمعتذر عنها ، فيقول عن " آدم متز " : إنه أحياناً يعسر علـــيه النص ، فيفهمه على غير وجهه . **وأحياناً يبتر النص** ، وقد كان الإتيان به كـــاملاً يوضح رأيه أو يخالف وجهة نظره . **ويستدل** في بعض المسائل على رأي بـــنص واحد ، ولو عرضت النصوص كلها لخرج منها برأي يخالف رأيه . **وأحياناً يحكّـــم عقيدته ، ونشأته** ، واعتماده على النصوص فقط دون الروح والذوق الفني والجو الإسلامي والوسط العربي **يشرد في رأيه ويخطئ في نظره** .

والعجيب أن "أحمد أمين" في تصديره لكتاب الحضارة الإسلامية في القرن الـــرابع الهجري لا يكتفي بصيغة التضعيف التي يبدو من خلالها الاعتذار لادم متز بل يختم كلامه بقوله: "ولعل كثيرا من المآخذ التي عددناها يرجع إلى أن المؤلف قد عاجلته منيته ، والكتاب في مسوداته لم يبيضها، ولم يضعها في شكلها الأخير"!!

ولست أرى هذا العذر الذي ساقه " أحمد أمين مقبولاً " ؛ لأن بتر النص ، أو تحكـــيم العقيدة ، أو التأثر بالنشأة ، أو تغافل الجو الإسلامي ، أو تجاهل الوسط العـــربي ، أو الاستدلال بنص واحد ، بل والخطأ في فهم النص ... كل هذا وغيره ما كان سيتغير لو أن آدم متز قام بتبييض كتابه، وإعداده للنشر !!.ولست مع هذا

العــذر أيــضاً ؛ لأنه تدليس على القارئ، وكان من الأولى أن يظهر هذا الكلام بــشكل واضح وأن ينبه على كل خطأ في موضعه حتى لا يقع القارئ في حيرة إن هــو رأى رأياً لا يتفق والفكر الإسلامي، لأنه ربما تبادر إلى ذهنه أن المترجم يعتقد هذا الرأي غير الصواب أو المخالف للعقيدة الصحيحة، ولا يعني كلامي هذا غمط آدم متــز حقاً هو له – إن وجد –بل ينبغي إبرازه ، ولكن على الجانب الآخر لا ينبغــي أن نوقــع القارئ في حرج ، أو نعتذر لــه ، أو نلوي الحقائق أمامه ، أو نتجاهل ما لا ينبغي تجاهله .

وجديــر بالملاحظــة أن " الاقتــصار على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضـــوع من مصادر متعددة والاكتفاء بها من غير أن يدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل النادر " ليست ميزة لآدم متز – كما يعتقد أحــمد أمين– ، بل هي من العيوب الخطيرة ؛ لأنها تذيب شخصية الباحث وسط ركام المعلومات ، وتــؤكد عدم قدرته على التحليل والنقد ، أو على الأقل عدم هضم المادة العلمية وصــياغتها بأسلوبه ، وفي هذا المقام نأخذ كلام " عبد الرحمن بدوي " الذي يشير إلى أن آدم متــز لم يقتصر على جمع النصوص ، وإنما لخصها وعرضها بأسلوبه غير أن مترجم الكتاب إلى العربية ترك صياغة المؤلف ، وقدم النصوص ، ورصها بجوار بعضها ، فبدت مفككة مضطربة ، ولعل هذا هو الذي دفع " أحمد أمين " الذي لم يطلع إلا على النسخة العربية أن يقول ما قال .

كمــا أن طــبع الكتاب قبل تنقيحه ليس مبرراً للوقوع في الأخطاء الجــسام الــتي لمسها " أحمد أمين " واعتذر عنها بأن الكتاب كان مسودة ، إذ إن المسودة إذا كان النص فيها مبتوراً ، فهو دليل على تحديد اتجاه المؤلف منذ البداية ، أما إذا اعتذر بهذا العذر فالأولى ألا يخرج الكتاب إلى النور وهو في حقيقته مقطوع مبــتور غــير مكتمل ، فإذا جاز لأحد المستشرقين أن ينشره ناقصاً ، فلا ينبغي في

حقـــنا نحـــن المسلمين أن نتلقف كتاباً مبتوراً ونسعى لترجمته ونضيفه إلى المكتبة العربية وهو مليء بالأخطاء ومضطرب الحجاج.

ونتساءل أخيراً .. أين الحقيقة ؟هل اطلع " بدوي "على النسخة الأصلية ؟ إن كـــان كذلك فكان ينبغي عليه أن يقدم مثالاً واحداً لخطأ ترجمة أبي ريدة !! . وهـــل تأكـــد " أحمد أمين " من كلام أبي ريدة أن النسخة الأصل مسودة ؟ إن لم يكن تأكد فقد خالف النهج الصحيح ، وأوقع القارئ العربي في حرج شديد ..

مـــن أجـــل كل هذا رأيت أن أخوض غمار هذا البحث لعلي أتمكن من الوصول إلى شيء من الحقيقة، أو ألفت النظر إلى ضرورة الوصول إليها .

وقـــد طـــبع الكتاب عدة مرات ، مما يشير إلى اهتمام الباحثين به حتى أن الطـــبعة الرابعة منه قد نشرتها كل من مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب العربي بـــبيروت ســـنة ١٣٨٧ هـــ - ١٩٦٧م ، وكانت مزودة بعدة فهارس قام بها " رفعـــت البدراوي " ، وقد تغيرت بعض الصياغات عن الطبعة الأولى ، ولا أدري هـــل هذا التغيير في النصوص من عمل " أبي ريدة " أو من عمل " البدراوي " فإن كـــان مـــن عمل " البدراوي " دون الرجوع إلى أصل الكتاب ، فهو خيانة للعلم وأهلـــه ، و إذا كـــان الأولى أن يبقـــى النص الأصلي على ما هو عليه ثم يعلق " الـــبدراوي " علـــى أخطائه في الحاشية .وقد علق الناشرون على الكتاب بقولهم : "هذا الكتاب "ثمرة نافعة لجهد عظيم . جهد مؤلف منصف صبور واسع الاطلاع ، وجهـــد مترجم مجيد وعالم متخصص .. ويكفي أن نعلم من جملة المصادر الكتاب مخطـــوطات أربت على الأربعين لم ينشر معظمها، محفوظة في مختلف عواصم أوربا ..لـــنقدر بعض هذا الجهد . الكتاب في مجلدين يضمان تسعة وعشرين فصلاً ، لم يتحـــرك ناحـــية من نواحي البحث فيما يتعلق بالدولة الإسلامية العظمى في ذلك العـــصر إلا وفصلها ، حتى جاء أشمل صورة ممكنة عما كانت عليه حال الدولة ، خلفـــاء وأمـــراء وسلاطين وقواداً وشعباً ، جماعات وأفراد ، علماً وأدباً ،ومعتقداً

وفلسفة واجتهاداً .. وإنها لصورة مشرقة للحضارة الإسلامية في عصر النهضة في الإسلام، من جميع نواحيها العقلية والمادية.. نقدمها بكل اعتزاز إلى قراء العربية، وارثي الحضارة الإسلامية..." وهنا ينبغي الإشارة إلى أن دور النشر التي تسعى إلى ترويج الكتب لابد أن تخضع إلى رقابة صارمة، وأن تتقي الله تعالى فيما تنشره على المسلمين .

وقد اخترت الفصل العشرين من فصول هذا الكتاب،وهو بعنوان "الأخلاق والعادات"(٥) ليكون موضوع هذه الدراسة ، وذلك لوضوح مخالفة " آدم متز فيه " للمنهج العلمي السليم من جانب ، حيث ظهر عدم مطابقة عنوان الفصل لمضمونه – كما سيتضح بعد قليل - ، ومن جانب آخر فإن مظاهر الأخلاق والعادات في القرن الرابع الهجري قد حفلت بها كتب التراث الإسلامي ؛ لما شهده هذا القرن من تطور ملحوظ في الفكر والثقافة ، أدى إلى تسجيل دقيق لعادات الناس وأخلاقهم من خلال كتب الرحلات وغيرها ، ومع ذلك لم يتعرض " متز" لهذه الكتب، ولم يقدم الطرح الواقعي لأخلاق الناس وعاداتهم ؛ وأخيراً لتجلية حقيقة كلام " بدوي "و" أحمد أمين " عن هذا الكتاب إجمالاً .

وستعرض هذه الدراسة بإذن الله ما توفر من معلومات عن شخصية "آدم متز" ، ثم ينتقل الكلام للمقارنة بين عنوان الكتاب وعنوان الفصل ، ومدى الترابط بينهما ، ثم تنتقل لعرض موضوعات الفصل العشرين عن الأخلاق والعادات ، وصفاً، وتحليلاً ، ونقداً ، وأخيراً تكون الخاتمة التي أعرض فيها تصوري عن دراسة القرن الرابع الهجري ، وما غفل عنه آدم متز عن عمد أو غير قصد ، منتهياً بالتوصيات والمقترحات .

---

(٥) يمثل هذا الفصل الصفحات (١٥٧ : ٢٠٨) من الجزء الثاني من الكتاب ، وهذا بناء على الطبعة الرابعة المزيدة بالفهارس ، والتي نشرت سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .

آدم متز - ADAMMEZ - :

لم تعـــط المـــصادر والمراجع التي بين أيدينا معلومات كافية عن آدم متز ونشأته الأولى،حتى إن مترجم كتابه إلى العربية "محمد عبد الهادي أبو ريدة" لم يقدم شيئاً يذكر عن حياة هذا الرجل.

أمـــا " عـــبد الـــرحمن بدوي " فقد ذكر صفحة واحدة فقط عن ذلك المستـــشرق أغلبها حديث عن كتابه الذي نحن بصدده ، أما ما قاله عنه فنصه: [مستشرق ألماني ، استقر في بازل بسويسرا . ولد في فرايبورج - أن - بريسجاو [جـــنوبي ألمانيا]١٨٦٩م واهتم بالأدب العربي في القرن الرابع الهجري وما تلاه . نشر في ١٩٠٢م " حكاية أبي القاسم " لأبي المطهر الأزدي تحت عنوان : ABUL KASIM , EIN BAGDADER SITTENBILLD وذلـــك عن مخطوط وحيد رديء ، وقـــد اقتـــرح دي خـــويه [١٩٠٢- ص ٧٢٣ ك ٧٣٦] الكـــثير من التصحيحات لنشرة متس هذه .وقد زود متس نشرته بمقدمة ممتازة وتعليقات وفيرة ومعجـــم ألفـــاظ.وبعد وفاته في ١٩١٧م وهو في الثامنة والأربعين من عمره ظهر كـــتابه الـــرئيس بعـــنوان : " **نهـــضة الإسلام** "،وذلك ١٩٢٢م بإشراف هـــ. ريكندورف H.RECKENDORF وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات ، ومنها العربية بعنوان : " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري " ..]

ومـــن خـــلال ما سبق عن هذه الشخصية يتضح أن حياته الأولى كانت غامـــضة ، ولا يعـــرف أي شيء عن تكوينه الثقافي ؛ مما يشكك في مصداقية ما يقـــوله، أما إنتاجه العلمي فلا يعدو مؤلفين الأول منهما نشر في حياته عن **مخطوط وحيد رديء** ، ومع هذا ظهرت عند المؤلف أخطاء نبه عليها غيره ، والأخطاء لم تكـــن قليلة ، بل هي كثيرة ، أما الكتاب الثاني فلم ينشر في حياته ، ولما نشر فيما بعد تغير اسمه أكثر من مرة ؟ .

فالشخصية غامضة مجهولة الهوية ، والكتاب الذي تلقفته المكتبة العربية لم ينـــشر في حياة صاحبه ، ولم يؤثر عن المؤلف شيء سوى تحقيق مخطوط وحيد رديء ، كثرت التصحيحات عليه بعد نشره .

هـــذه أمور ينبغي أن توضع في حسبان القارئ وهو في بداية المطاف مع هذه الدراسة ، حتى تتضح أمام ناظريه مكانة الكتاب الذي حددت الدراسة فصلاً واحداً منه فقط لنقرأه قراءة نقدية فاحصة قدر المستطاع .

بين عنوان الكتاب وعنوان الفصل :

سمـــي هـــذا الكـــتاب في مسوداته الأولى التي تركها " آدم متز " قبـــل رحيـــله عن الدنيـــا باسم : " **عصر نهضة الإسلام** " ، ثم ترجم إلى العربية وطبع تحـــت عـــنوان : " **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** "، وهذه التسمية عليها عدة ملحوظات ينبغي التعرض لها هنا ، وهي كالتالي :

إن آدم متز نفسه لم يطلق التسمية الأخيرة وهي " **الحضارة الإسلامية في القـــرن الرابع الهجري** "على كتابه، وما كان ينبغي أن يوضع اسم الكتاب الذي اصـــطنعه المتـــرجم أساساً وعدَّه عنواناً للكتاب في حين لا تبدو أدنى إشارة على غلاف الكتاب لعنوانه الأصلي الذي وضعه صاحبه ،وكان من الأَوْلى – على أسوأ الفـــروض – أن يوضـــع العنوان الأصلي ولو بين قوسين، أو بخط أصغر احتراماً للمؤلف وللعلم على حد سواء،لكن هذا لم يحدث للأسف الشديد .

إن تسمية الكتاب بالحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لا تتفق مع المـــادة العلمـــية الموجودة في ثناياه ؛ حيث يتحدث المؤلف عن أحداث في القرون الـــثلاثة الأولى – أحياناً – كما يتحدث عن أمور وأحداث بعد القرن الرابع ، بل ربمـــا تعـــدى ذلك للحديث عن العصر الذي عاش فيه المؤلف نفسه ، وقد كان يستدل من خلال أحداث قرون عديدة على فكرة طرحها ، ليؤكد فكرته التي آمن بهـــا ، ولـــيس لبـــيان ما حدث بالفعل في القرن الرابع الهجري ولعل الذي حدا

بالمتـــرجم إلى تغـــيير اسم الكتاب هو كثرة المعلومات التي وردت عن القرن الرابع الهجري أكثر من أي قرن آخر قبله أو بعده ، وإن كنت لا أراه مبرراً كافياً للوقوع في مثل هذا الخطأ .

إن عـــصر نهـــضة الإســـلام كما يعرفه أهل الإسلام يعني الحديث عن القـــرون الهجرية الأولى مجتمعة باستفاضة تامة ، مصداقاً لقول النبي ﷺ : "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .." [٦].

أو بلغـــة أدق نقـــول :عصر الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة هو عـــصر نهـــضة الإسلام؛ مصداقاً لقوله تعالى:﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (سورة المائدة:من الآية٣)

فالعصر الذي اكتمل فيه الدين ، وتم تطبيقه تطبيقاً شاملاً كاملاً صحيحاً هو بلا شك عصر نهضة الإسلام حقاً ، أما القرن الرابع الهجري فهو بداية عصر نهضة المسلمين ؛حيث نهضوا في علوم ومعارف استقوها من مرتكزات الإسلام الثابتة التي اكـــتملت معالمهـــا في عصر النبوة ،ولم يبق إلا السير وفق دستورها الراشد القويم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أمـــا مـــا يتعلق بعنوان الفصل الذي اتخذته هذه الدراسة مجالاً للقراءة النقدية ، والمسمى " الأخلاق والعادات "، فعليه مجموعة أخرى من الملحوظات، لعل من أهمها ما يلي :

لم يوضـــح المؤلـــف (آدم متز) المقصود من عنوانه الذي وضعه للفصل العشرين من كتابه عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، وإذا قلنا إن ما ورد من أحداث وأفكار داخل هذا الفصل توضح عنوانه ،فإن ذلك الأمر يوقعنا في حـــرج شـــديد ؛ حيث اهتم "متز " بسرد جملة من السلوكيات القبيحة في قصور بعض الخلفاء وكبار رجال الدولة ، وسلط عليها الأضواء؛حتى أصبح القارئ يكاد

---

(٦) الحديث رواه البخاري في صحيحه – كتاب فضائل صحابة النبي ﷺ .

يجـــزم أن هذا هو مجتمع القرن الرابع في صورته الكاملة ، ثم يقع القارئ في حيرة شديدة للغاية بين وصف المؤلف لهذا المجتمع من خلال الواقع والأحداث بالانحلال والـــتدهور، وبين عنوان الفصل، بل وبين عنوان الكتاب ذاته، وربما ورد تساؤل: هـــل هذا حقاً هو عنوان الفصل الذي وضعه المؤلف؟ أم لحقه التغيير من المترجم، كما لحق عنوان الكتاب ؟!.

والحـــق أنه من العسير تغيير عنوان مكون من كلمتين ووضعهما بالمعنى ، وهذا يرجح أن تكون الترجمة لعنوان الفصل ترجمة حرفية .

* لم يـــستقص المؤلف كل الظواهر الأخلاقية التي كانت في القرن الرابع الهجـــري ، ويـــبدو أنه لم يركز إلا على ما لـــه علاقة بما يحدث في مجتمعه الذي يعيش فيه من مخالفات أخلاقية .

* الاهـــتمام بـــشريحة واحـــدة فقط من المجتمع وهم الخلفاء ،ثم الحديث التفصيلي غير المستقصى عنها.

* مـــا قاله المؤلف عن الأخلاق من حيث الكم لا يتناسب مع ما قاله عن العادات في هذا الفصل .

* لا يوجد أي رابط في أثناء الفصل بين الأخلاق والعادات .

إن كلمة "عادة" التي تمثل بشكل طبيعي أكثر من نصف الفصل لم تظهر فـــيه إلا نادراً، وكان أغلب ظهورها في كلام بعيد عن القرن الرابع الهجري على الـــرغم مـــن أن أغلب ما ذكره المؤلف عن هذا القرن كان من مسائل العادات ، وسيتضح لنا بإذن الله عند التعرض لموضوعات الفصل بشيء من التفصيل والتحليل هذا الكلام بشكل جلي .

وخلاصـــة القول : إن عنوان الكتاب لا يتناسب مع مضمونه إجمالاً ، وكـــذلك عنوان الفصل الذي نتناوله بالدراسة لا يتفق والأحداث التي ذكرت فيه ؛ وهذا يخالف الإنصاف والمنهج العلمي السليم .

موضوعات الفصل – دراسة وصفية تحليلية :

ذكر "آدم متز" خمسة عشر موضوعاً في هذا الفصل، وفيما يلي بيان هذه الموضـــوعات ، وعـــدد الـــصفحات التي استغرقها كل موضوع منها ، وتصنيف الموضوع حسب طبيعته ، إن كان عادة أو خلقاً من الأخلاق :

* الخصاء والخصيان :ويشمل ثماني صفحات، وهو من العادات.
* الغلمـــان والغلاميات : ويشمل نحو ثماني صفحات ونصف ، وهو من العادات .
* المرأة والبغاء :ويشمل نحو تسع صفحات، وهو من العادات .
* فحش القول عند الرجال :ويشمل نحو ثلاث صفحات ونصف صفحة، وهو خلق
* حب المال :ويشمل نحو صفحة ونصف ، وهو من العادات .
* ضعف الكرامة العربية : ويشمل صفحتان، وهو من العادات.
* تعذيب الأسرى والخارجين والمتمردين:ويشمل نحو ثماني صفحات وهو من العادات
* الفظائـــع عـــند تنـــصيب الخلفاء : ويشمل أربع صفحات ، وهو من العادات .
* قسوة الحكام : ويشمل نحو صفحة ، وهو خلق .
* الانتحار : ويشمل نحو نصف صفحة ، وهو من العادات .
* المعاملة في السجون :ويشمل صفحة واحدة،وهو من العادات.
* الزكاة والصدقة :ويشمل صفحة ونصف صفحة ، وهو من العادات .
* تمادي العشاق : ويشمل نصف صفحة وهو من العادات .
* العطـــف علـــى اليتـــيم : ويشمل سطرين ونصف سطر ، وهو من الأخلاق .

* بناء المستشفيات : ويشمل نحو أربع صفحات ، وهو من العادات .

هـــذه هي موضوعات هذا الفصل المعنون بالأخلاق والعادات،ويلاحظ عليها في النظرة الأولى العجلى ما يلي:

أولاً : أفكار المؤلف في الحديث عن الأخلاق والعادات غير متوازنة ، ففي حين مثلت الأخلاق أربع صفحات ، مثلت العادات نحو إحدى وخمسين صفحة تقـــريباً ، فنـــسبة الكلام عن الأخلاق إلى الكلام عن العادات تساوي ٣ : ١٥ ، وهذا يدل على عدم وجود توازن بين عنوان الفصل وموضوعيه الأساسيين .

ثانياً : بعض الموضوعات في الفصل فيها استطراد كبير ، يصل أحياناً إلى نحـــو ثمـــاني صفحات ، بينما لا تكاد موضوعات أخرى تتجاوز أكثر من سطرين ونصف ، فلا يوجد تناسب كمي بين الموضوعات .

ثالـــثاً : أغلـــب العـــادات التي تعرض لها المؤلف في هذا الفصل ذميمة ، والقلـــيل الـــنادر منها محمود ، والمحمود منها لا يتجاوز الكلام فيه أكثر من ثلاث صـــفحات ونصف الصفحة ، وربما قلَّ ليصل إلى فقرة واحدة من سطرين ونصف فقط ، أما العادات الذميمة فالكلام فيها يصل نحو ثماني صفحات .

رابعـــا: لا يمكـــن تحديد الموضوعات الرئيسية أو الفرعية في هذا الفصل ؛ لوجود تداخل شديد أحياناً ، أو انقطاع غير منطقي أحياناً أخرى ، ففي حين يبدأ الكـــلام عـــن الخـــصاء والخصيان ثم الغلمان والغلاميات ثم المرأة والبغاء، وهذه موضـــوعات قد يكون بينها شيء من الترابط من حيث كونها جميعاً عادات ذميمة تتعلق بالرجل والمرأة – مع تحفظنا في قبول تلك الأفكار أو مصداقيتها . نظهر على الجانـــب الآخر كلامٌ عن السجون ثم الزكاة والصدقة ثم المستشفيات ، ولا يوجد أدنى تـــرابط بـــين هذه الموضوعات وبعضها البعض ، وهذا يشير إلى عدم وجود توازن كيفي –فضلاً عن الكمي- بين موضوعات الفصل .

خامساً: هذه الموضوعات لا تمثل أخلاق المسلمين جميعاً في القرن الهجري الرابع ، فقد ترك آدم متز عدداً هائلاً من الأخلاق الإسلامية التي تحلى بها مسلمو القرن الرابع الهجري بها ، مثل : الصدق ، والأمانة ، والعدل ، والإخلاص ، والمحبة، والتكافل الاجتماعي ، أما هذه الأخلاق التي تعرض لها " متز " فهي فضلاً عن قبحها لا تمثل سوى لقطات متناثرة من هنا وهناك ، وهذا يشير إلى ضعف المادة العلمية في هذا الفصل وافتقارها إلى وصف الواقع بأمانة وموضوعية ؛ ولهذا كان المؤلف مضطراً إلى القفز بين القرون المختلفة لاصطياد ما يعضد فكرته ، فهو تارة يلتقط صورة قبيحة من القرن الثالث ، ثم يقفز إلى القرن السادس ، ليلتقط صورة أقبح ، ثم يقفز مرة أخرى إلى القرن التاسع ، ليبرز صورة ثالثة ، ثم يضم كل ذلك إلى بعضه ليدلس على القارئ،الذي يخيل إليه من سحر المؤلف أن هذه حقيقة مجتمع القرن الهجري الرابع .

سادساً : نسي المؤلف أو تناسى عدداً آخر من العادات الحميدة التي تمثل بها مسلمو القرن الرابع الهجري ، والمنبثقة من الإسلام ومبادئه السمحة الراقية ، مثل الملابس والمآكل والمشارب ، والمجالس والمواكب ، والحفلات العامة والخاصة ، وغير ذلك مما تزخر به الكتب التي نقل عنها نقوله ، مما يؤكد بوضوح تام أن آدم متز كان يعنيه بالدرجة الأولى تتبع عورات المسلمين وجمعها في كتاب واحد ؛ لتتضخم ويكون مردودها الذي يهدف إليه المؤلف المذكور بالغ الأثر في المسلمين وغيرهم ، ولعل العادات التي ظهرت في مجتمع المؤلف بشكل بارز في حياته هي التي دفعته إلى البحث عن مثيل لها في الشرق الإسلامي ؛ ليبرر لنفسه أو لمجتمعه أمراً ما ربما يسهل على القارئ إدراكه .

سابعا: إذا دققنا النظر قليلاً وجدنا أن كلمة (**عادة**) التي تمثل صلب كلام المؤلف في هذا الفصل لم تظهر إلا نادراً، وكان أغلب ظهورها في كلام بعيد عن العصر الذي نحن بصدده، فالمؤلف على سبيل المثال قد استهل كلامه في بداية

الفـــصل بقـــوله (ص ١٥٧) : " استلزمت العادة في بيوت السادة والكبراء عند الدول الشرقية القديمة في الدولة الرومانية البوزنطية أن تهيأ هذه البيوت بالخصيان ، وقــد حـــرم الإسلام ذلك "ثم يقول بعد عدة أسطر (ص ١٥٧): "دخل الإسلام حوالي ٢٠٠هـ - ٨١٥م؛ بسبب تقلص ظل الروح العربية عادات شرقية قديمة".

ويقول بعد عدة صفحات عند كلامه عن فحش القول عند الرجال : (ص ١٨١، ١٨٢) . "ولــيس هذا أيضاً شأنه شأن غيره — إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التي كانت قبل الإسلام " ثم لا نكاد نلمح أثراً لكلمة (**عادة**) بعــد ذلك في هذا الفصل سوى مرة واحدة بمعنى الصفة حين قال (ص ١٩٠) : "وكان الثوار الذين يؤخذون في الأسر بين المسلمين، يُشْهرون عادة في المدن على بغال، أو أفيال ، أو على جمل ذي سنامين وهو الأحب".

وعلى الرغم من قلة استخدام لفظ [**عادة**] في هذا الفصل الذي يتحدث عن العادات ، والذي تمثل الكلمة نصف عنوانه ، فإن الفصل التالي مباشرة وهو الفصل الحـــادي والعشرين وعنوانه :" **أحوال المعيشة** " (ص ٢٠٩ : ٢٦٧) تنتشر فيه كلمة [عادة] بشكل كبير،وفيما يلي النصوص التي تؤكد ذلك:

"ويـــرجع أصـــل هـــذه العـــادة — عـــادة اتقاء الحر الشديد بالنزول في الـــسراديب - إلى بلاد آسيا الوسطى". " وكانت عادة الأكاسرة أن يطيّن سقف بيت في كل يوم صائف ، فتكون قيلولة الملك فيه " . " وكانت هذه عادة الأمويين أيـــضاً " . " وهذه عادة كانت بالشام " . " وكان من عادة الظرفاء اجتناب لبس الثياب ذات الألوان ؛ لأنهم كانوا يعتبرون ذلك من شأن النساء والأولاد " . " وقد جـــرت العادة دهراً طويلاً بأن يلوي الغلمان والجواري شعر أصداغهم على صورة حـــرف النون [ن] أو على صورة العقرب ". " وفي هذه الناحية ظهرت عدا ذلك مجموعة عادات أخرى بعيدة كل البعد عن روح الإسلام " . " وهذه عادة معروفة عـــند شعوب كثيرة " . " وهذه أيضاً إنما كانت جرياً على عادة قديمة " . " وإنما

ذكـــر وضع ألوان الطعام بعضها بعد بعض ؛ لأنه كان عادة مستحدثة ، أما العادة الإســـلامية القديمة فكانت تقضي بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة ؛ ليأخذ كل واحد منه ما يشتهي " .

هذه النصوص توضح كثرة ورود كلمة [عادة] ، أو [عادات] في الفـــصل المعقـــود لمستوى المعيشة في القرن الرابع الهجري ، وبغض النظر عن تجـــاوزات" آدم "متز فيه – أقصد التجاوزات المنهجية والفكرية – إلا أنه يمكن القـــول : إن إضـــافة هـــذا الفصل الذي أكثر فيه من ذكر كلمة (عادة) إلى الفصل السابق عليه كان أولى وأفضل ؛ لتقاربهما في الموضوع ..

وفـــضلاً عن ذلك ، فإن " آدم متز " عقد فصلاً آخر عن "الأعياد" وهو الفـــصل الثالث والعشرون ، ومع ذلك لم يشر " متز " إلى أنه سيفرد فصلاً خاصاً بالأعياد في أثناء كلامه في فصل الأخلاق والعادات ، وكان من الأولى بالمؤلف أن يـــضيف هـــذا الفـــصل أيضاً الذي خصصه للأعياد إلى الفصل الخاص بالأخلاق والعادات . كما أنه لم يقدم تفريقاً بين الأخلاق والعادات وهذا مأخذ كبير عليه

ثامنا : لقد استغرقت بعض الموضوعات من المؤلف ما بين السبع والتسع صفحات ؛ مما يؤكد اهتمامه بها – وسيتضح للقارئ من خلال هذه الدراسة عدم منهجـــية المستشرق الألماني آدم متز ، كما ستبيّن كيف يضع المستشرقون سمومهم وسط السطور ، ويخفونها حتى يتجرعها القارئ بعفوية وتلذذ ،فيكون فيها هلاكه والعـــياذ بـــالله ، وسيظهر كذلك مدى التشدق باسم العلم والنزاهة العلمية لهؤلاء المستشرقين .

تاســـعا : إن الموضـــوعات الثلاثة الأولى ، وهي : الخصاء والخصيان ثم الغلمـــان والغلامـــيات ثم المـــرأة والبغاء التي تمثل فاتحة كلام المؤلف عن العادات والأخـــلاق الإســـلامية في القرن الرابع الهجري ، قد أطال " متز " الكلام فيها، واســـتطرد كثيراً ، مبتعداً عن جوهر الموضوعِ ؛ مما يدل على اهتمام المؤلف بها ،

وقد استوعبت هذه الموضوعات الصفحات من (١٥٧ حتى ١٨١) أي ما يكاد يقترب من نصف عدد صفحات الفصل كله ، وقد اتضح منهج المؤلف فيها، وكثرت النقول التي ساقها للتدليل على فكرته ، بشكل ملحوظ .

موضوعات الفصل – دراسة نقدية :

عند إمعان النظر في هذا الفصل تظهر التناقضات التالية :

أولا : سوء الاستهلال :

استهل متز كلامه عن الأخلاق والعادات في القرن الرابع الهجري بنقل عن المستشرق سخاو ، يقول فيه (ص ١٥٧) : " استلزمت العادة في بيوت السادة والكبراء عند الدولة الشرقية القديمة وفي الدولة الرومانية البوزنطية أن تهيأ هذه البيوت بالخصيان ".

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما صلة المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري بالعادة التي كانت سائدة في الدولة الشرقية القديمة أو عند الرومان ؟!

إننا لا نجد عند متز إجابة على هذا التساؤل ، غير أنه يعلق في الحاشية بقوله (هامش (١) ص ١٥٧) : " وأصل ذلك ديني ، وقد أوجد هذا الجنس الثالث قديماً إرضاء للآلهة ، وقد أنكر محمد عليه السلام هذه القيمة الدينية التي ادعيت له ، كما أنكرها الفصل الأول من قرارات مؤتمر نيقية ". ثم نتساءل :

أي دين أباح الجنس الثالث –كما يدعي متز – إرضاء الآلهة ؟ وأي آلهة هذه التي يرضيها تغيير الخلقة بيد العباد، ثم تبارك ذلك، وتسميه جنساً ثالثاً ؟! وماذا يقال عن الخنثى : هل يقال : هو جنس رابع ؟!! وما صلة مؤتمر نيقية بالموضوع الذي نحن بصدده ؟ ولماذا يقول متز : أنكر محمد ؟ ولم يقل أنكر الإسلام ذلك ؟! وأي قيمة دينية في إباحة الجنس الثالث هذا ؟!

ثم إذا كانت هذه هي العادة في بيوت " السادة " و " الكبراء " في الدول الشرقية القديمة وفي الدولة الرومانية، فما وجه الشبه بين هؤلاء وبين المسلمين ؟!

ولـــو سلمنا بأن الخصيان كانوا ينتشرون في بيوت السادة والكبراء، فهل يعني ذلك انتشارهم في كل البلدان ، أو عند جميع السادة والكبراء ؟! وهل يقتصر الكلام عن الأخلاق والعادات على السادة والكبراء فقط دون بقية أفراد المجتمع؟!

ويلاحـــظ أن " متز " قد قرر –بعد عدة فقرات – أن اليهود يحرمون الخصاء في شريعتهم ، بل يستنكر فعل بعضهم له مع تحريم ديانتهم لذلك ! فإذا كان اليهود قد حرموه ، والنصارى امتداد لليهود ، فهو بلا شك سيكون محرماً عندهم، ثم لأن الإسلام حرمه، فماذا يعني قول متز:" وأصل هذا ديني " ؟!

إنهـــا بداية –كما قلت– غير موفقة؛ لعدة أسباب ، لعل من أهمها السببين التاليين :

الـــسبب الأول : إن المؤلف لم يدخل في صلب الموضوع مباشرة ، وإنما قـــدم لـــه مقدمـــة تاريخية ؛ ليثبت الفكرة التي طرحها في ذهن القارئ ، وهي أن الخصاء من العادات الموجودة عند المسلمين في القرن الرابع الهجري ، مع أن الأدلة التاريخية التي ساقها لتأكيد فكرته كانت قليلة وفي غير موضعها .

السبب الثاني : أن منهج متز في تفسير أحداث التاريخ قد بدا واضحاً منذ البداية ، حيث انطلق من عالمه ومجتمعه الذي يعيش فيه بما فيه من متناقضات ، إلى المجتمع الإسلامي ، فصبغ عليه أخطاء مجتمعه ، ثم انطلق يبحث عن أدلة تعينه على تحقيق هدفه المنشود .

ثانياً : تفكك الأفكار وعدم ترابطها :

قـــد يقـــع القارئ لأول وهلة في شباك المؤلف الذي يتكلم عن الأخلاق والعـــادات في واحد من أنصع قرون الإسلام من الناحية الحضارية ، لكن القارئ يـــصطدم بعـــد قليل بكم هائل من المعلومات المتراصة جنباً إلى جنب، وليس بينها سوى رابط واحد أنها تحت عنوان واحد ، أما منطقية العرض ، ومنهجية التفكير ، والمقدمات التي تسلم إلى نتائج، فهذا ما يفتقر إليه أسلوب المؤلف الذي بين أيدينا.

والدلـــيل علـــى ذلك هو ما قاله متز عن (الخصاء والخصيان) ، حيث جـــاءت الأفكار في داخله غير مترابطة ، فالمؤلف يتكلم عن عادة الخصاء تارة، ثم عن عادة الخلفاء المسلمين في القرن الثالث الهجري تارة أخرى، ثم يعود للكلام عن عـــادة الخـــصاء عـــند اليهود والنصارى ،ثم ينتقل بين القرون، فيتكلم عن القرن الـــسادس الهجري ، ثم القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) ، ثم يـــرجع للقرن الخامس الهجري ثم ينتقل إلى أعمال الخصيان في الكنيسة،ثم ممارسة الـــيهود في فرنسا لتلك العادة،ثم يتكلم عن صفات الخصيان وأخلاقهم ، ثم معنى الخصي في اللغة ، ويعود مرة أخرى إلى صفاقم ...فلا تكاد تجد نفسك أمام فكرة متـــرابطة علـــى مـــستوى الموضوع الواحد،بل ترى هذه الملحوظة أمامك في كل موضوعات الفصل فضلاً عن الكتاب كله الذي يحوي تسعة وعشرين فصلاً .

ومـــع كل هذا ، فإن القراءة النقدية واجبة لأن النص الذي يتداوله العالم العربي الإسلامي باللغة العربية هو ترجمة أبي ريدة ، فالنقد موجه إلى النص العربي أولاً ، وبالأحـــرى إلى المترجم ، فإن كانت الترجمة صحيحة ومطابقة لما قاله متز، فالـــنقد مـــوجه لمتز أيضاً ويبدو أن جانباً لا بأس به من كلام متز قد ترجم على حقيقـــته ؛ فالنصوص التي جاءت للاستدلال توضح بجلاء ما كان يهدف إليه هذا المستشرق . وإن كلام " بدوي " الذي سبقت الإشارة إليه من كون " أبي ريدة " جـــاء بترجمة غير متسقة لا يعنينا هنا كثيراً ؛ لأن " بدوي " لم يترجم جملة واحدة مـــن كـــتاب " متز " الأصلي ، ثم يقارن بينها وبين ترجمة " أبي ريدة " ، كما لم يحـــدد الترجمات الأخرى التي أشار إلى وجودها ، وطالب المثقف العربي بالرجوع إلـــيها ، فنحن أمام ترجمة وحيدة بالعربية ، ويصعب على المثقف العربي أن يتعلم اللغـــة الألمانـــية مثلا من أجل الاطلاع على النسخة الأصلية كما أن نفعله في هذه الدراسة هو النظر إلى ما بين أيدينا والحكم عليه بتجرد وموضوعية .

وعـــندما تكلم متز عن (الغلمان والغلاميات) لم تسعفه المادة العلمية ، فكـــان يضم أفكاراً ليست متسلسلة بطريقة منطقية جنباً إلى جنب ما دامت هذه الأفكار تندرج تحت موضوع واحد، فهو يتحدث عن عادة ارتداء الجواري لملابس الخدم وانتشار هذه العادة منذ القرن الثالث الهجري ، ثم ينتقل إلى الكلام عن عدم أهمـــية هـــذه العادة في ظل سيادة الروح العربية، ثم ينتقل الحديث عن عدم تعرض الفقهـــاء في القرن الرابع الهجري للحديث عن عادة اللواط ، ثم يتكلم عن الشعراء الـــذين يقولـــون الشعر في الغلمان تشبيباً بهم ، ثم يذكر أماكن في العراق خاصة باللهـــو ، ثم يحكي قصة عن الحاكم بأمر الله الفاطمي ، ثم يسرد قصصاً غرامية في الولوع بالغلمان ، ثم يرجع مرة أخرى ليذكر موقف بعض العلماء من الطلاب غير الملـــتحين ، وهـــذا التنقل غير المنطقي يوضح بجلاء عدم الترابط بين الأفكار التي يـــضمها عـــنوان واحد . وقد يكون (أبو ريدة) مترجم الكتاب إلى العربية قد بتر تـــرجمته للنص الأصلي ، مما جعله غير متسلسل بطريقة منطقية ، غير أن التسلسل المنطقـــي لعرض الموضوع لا يعني ترابط الأفكار ،وبالتالي فكلا الرجلين (أبي ريدة ومتز) غير موفقين .

وحين انتقل إلى الكلام عن (البغاء) ظهر بوضوح التكرار وعدم الترابط بين الأفكـــار ، فهـــو يذكـــر عدة أفكار مرتبطة بموضوع البغاء هي : البغاء وإنكار الإســـلام لــــه . وعـــضد الدولة يترك البغاء منتشراً ؛ ويفرض الضرائب عليه . والفاطميون يفعلون مثل ذلك . وعضد الدولة والأميرة جميلة الحمدانية . والبغاء في اللاذقـــية والسوس . والحنابلة يطاردون المنكر. وواجب المحتسب عند الماوردي . ولـــزوم المـــرأة بيتها . والحاكم بأمر الله . وأثر البغاء في الأسبان وفي الإيطاليين . والفـــصل بـــين الأسرة والأغراب . وظهور الحظايا . وتعليل لسلطان الرجل على المـــرأة في مصر . ومطالبة المرأة بالوظائف . ونساء عالمات بالدين : أم الواحد وأم الفتح وجواز قضاء المرأة. . وتفضيل الطبقة الوسطى الزواج بواحدة ، حظية المعز

لـــدين الله الفاطمي . والتعدد عند الكبراء كان من طريق اتخاذ الجواري . والزوجة الأساسية تسمى الحرة . وسبب حظوة الإماء ، وزواج الأرامل وكراهيته ، وسبب الفحـــش في أمـــم الجنوب ليس مجرد انفصال النساء عن الرجال بل هو شيء غير عربي ، العربي أعف وأطهر من غيره.

ويتـــضح مـــن الأفكار المختلفة السابقة أن المؤلف تقلب بين أفكاره غير المتسقة ، و لم يكن منهجيا في عرضه .

ثالثاً : تكرار الأفكار في مواضع متفرقة :

لقـــد كانـــت فكرة الخصاء والخصيان تلح على ذهن المؤلف بشكل كبير ، ويحـــاول تأكـــيدها بـــأي طريقة ممكنة أو غير ممكنة ، لذلك أخذ يكرر أفكاره بأساليب مختلفة وهذا التكرار يعد عيباً منهجياً خطيراً ، ما لم يكن لـــه ما يبرره ، وأما الإلحاح على فكرة الخصاء بغرض تأكيدها ، وجعلها ظاهرة ضخمة في القرن الـــرابع الهجـــري ، فهو أمر ضد الأمانة العلمية والحيادية التي ينبغي أن يتحلى بها الباحث في مجال الفكر عموماً ، ويؤكد ذلك ما يلي :

- فقد تكلم " متز " عن حصول المسلمين على الخصيان من اليهود والنصارى أو عن طريق الغزو في أكثر من موضع .

- وتكلم عن قيام اليهود بعملية الخصاء في ثلاثة مواضع متفرقة ، ولو جمعها في موضع واحد لكان أجدى وأفضل ، ولتفادى التكرار ، فقال مرة (ص١٥٨) : " .... تـــاركين لليهود والنصارى إثم هذا الفعل الشنيع "، وفي موضع آخر (ص ١٥٩) قـــال : " أمـــا الخـــدم الصقالبة فكانوا يجلبون إلى مدينة بجانة ...- يعني الخـــصاء- ...، أهلـــها يهـــود " وفي موضـــع ثالث (هامش ٥ ص١٥٩) قال : "وكذلك كان يهود فرنسا يمارسون الخصاء ".

- وعـــندما تكلم عن صفات الخصيان الخلقية،فرق الكلام في أربعة مواضع ، ففـــي موضـــع (ص ١٦١)قال : "وقد اشتهر الخصيان بالصبر .."وفي موضع ثان

(ص ١٦٣)قال: " وقد عرفوا الشرق بأن الواحد منهم لا يصلح .."، ثم يقول مرة ثالثة (ص١٦٣) :" ومن صفاتهم التي يختصون بها "،وفي موضع رابع (ص ١٦٤) يسوق كلام ابن حوقل والجاحظ في صفاتهم المختلفة.

- وعـــندما تعـــرض لموقـــف الإسلام من عملية الخصاء ، ذكره في مكانين متباعدين ،قال في الأول بصورة التقرير (ص ١٥٧) : "وقد حرم الإسلام ذلك ، وشدد القرآن وشددت السنة في تحريم خصاء الإنسان أو البهائم" ، وقال في الموضع الثاني (ص ١٥٧)مستنكراً شراء المسلمين للخصيان : "رغم ما جاء به النبي عليه السلام في شأنها من الإنكار والمنع الصريح ".

- إن تكـــرار الأفكار عند "متز" لا علاقة لـــه بقضية الترجمة من الألمانية إلى العـــربية أو أي لغـــة أخرى،فالمترجم قد يخطئ في كلمة أو جملة، وربما كان تعبيره ركيكا، حيث يرجع ذلك كله إلى مدى تمكنه من اللغة التي يترجمها،وكذلك اللغة الـــتي يـــنقل إليها، لكن هذا الأمر يختلف تماما عن وجود عدة نصوص بأكملها ، تعطي في مجمله مجموعة من الأفكار المتناقضة .

رابعاً : التناقض في الأفكار :

إن أول تـــناقض وقع فيه المؤلف هو قوله عن عملية الخصاء إن أصلها ديني؛ لأنه ذكر بعد ذلك أن اليهود يحرمون هذه العملية ن كما ذكر أن الإسلام يحرمها، بـــل اســـتنكر على اليهود فعلهم لها مع تحريم ديانتهم لها ، فلم يحدد لنا "متز" أي الديانات إذن تعده من شريعتها !

ومن صور التناقض أيضاً قول المؤلف (ص١٥٨) : " وقد احتال المسلمون للإفـــلات مـــن حـــرمة منع الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان ، تاركين لليهود والنـــصارى إثم هذا العمل الشنيع "ثم قوله معلقاً (هامش١ص ١٥٨) : "على أنه مـــن الغـــريب في هذا الباب أن اليهود كانت شريعتهم كانت تحرم عليهم خصاء الخيل والثيران ، حتى كانوا يضطرون إلى ابتياع الثيران المخصية من النصارى "

وقبل التعليق على النقلين السابقين أود لفت الانتباه إلى أن عنوان الفصل هو " **الأخلاق والعادات** "،فما صلة اليهود بأخلاق وعادات المسلمين ؟ وما صلة الثيران المخصية بالمسلمين ؟!

إن أول مـــا يـــثير الاستغراب هو الحكم على المسلمين بالاحتيال دون دليل واضح على ذلك في الوقت الذي يعتذر فيه لليهود ويعدهم في حالة اضطرار لشراء الـــثيران المخصية ؛ لأن شريعتهم لا تبيح لهم خصاءها !! علماً بأنه أكد أن شريعة الإسلام لا تبيح ذلك أيضاً .

ولقـــد قـــرر " متـــز " في موقع آخر أن المسلمين كانوا يبذلون أموالاً طائلة للحصول على الخصيان ، فهل كان المسلمون يسعون لدفع أموال باهظة يحتالون بها في الحـــصول على الخصيان؛ لأن شريعتهم منعت الخصاء ؟ في حين أن الحيلة غير المـــشروعة لعمـــل مشروع لا تقبل في الإسلام ، وبالتالي فإن خصاء الغلمان بعد شرائهم أوفر لمن يريد ذلك ، ما دام محتالاً !! .

وجديـــر بالذكر أن شراء الخصيان لم يكن الطريق الوحيد للحصول عليهم — كما قرر المؤلف نفسه .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن شراء الخصيان أو غيرهم في ذلك الوقت ليس منقصة ، بل كانت في حق المسلمين مكرمة ؛ لأنهم ما يلبثون أن يعتقوهم .

ومـــن صـــور التـــناقض أيـــضاً : ما ذكره متز عن امتهان العوام للخصيان والاســـتهزاء بهم ، مستدلاً على ذلك بقول المسعودي " إن العوام كانوا يستهزئون بالخـــدم الـــسودان في الشوارع ويصيحون بهم ويقولون : يا عقيق ، صب ماء ، واطرح دقيق ، يا عاق ، يا طويل الساق " (ص ١٦١) .

ثم ذكـــر أن المسلمين كانوا يطلقون عليهم أسماء تدل على التوقير والاحترام ،مـــثل : الأســـتاذ ، والشيخ، والمعلم، والخادم، وأكد في موضع آخر أثر الخصيان السياسي، ومدى تسلطهم على الملوك والسلاطين في بعض الأحيان، بل ساق أسماء

قواد شجعان منهم من كان يشار إليه بالبنان، مثل: فائق قائد السامانيين [٧]، وثمل القائد البحري صاحب الانتصارات بطرسوس [٨] ومن أقوال متز (ص ١٦٣): " ولم يكن يتمتع بثقة عضد الدولة [٩] -مع قلة ثقته ، وشدة تجبره وقسوته على الرعية- إلا غلام خصي أسود يسمى شكراً ،فقد كان مستولياً على جميع أموره ". وقـال (ص ١٦٤): " وكان أبو الفتوح برجوان [١٠] خادماً أبيض خصياً ربي في دار الخليفة العزيز بالله وولاه أمر القصر ".

---

(٧) السامانيون ، هم جماعة ينتسبن إلى أحد أتراك ما وراء النهر واسمه سامان ، تمكنوا من إنشاء دولة عرفت بـاسمهم في بـلاد ما وراء النهر ، ولهم أخبار كثيرة ، وآثار ضخمة في مجال الحضارة والتقدم العلمي . راجع الطاهر : د. عبد الباري محمد الطاهر : فرسان والخلافة في العصر العباسي الأول – ط. الأولى – سنة ١٩٩٤ م دار رياض الصالحين الفيوم – مصر

(٨) طرسوس : بفتح أوله وثانيه وسينين مهملتين بينهما واو ساكنة بوزن قربوس كلمة أعجمية رومية ... سمـيت بطرسوس بن الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام ، وقيل إن مدينة طرسوس أحدثها سليمان (كـان خادمـاً للرشيد) في سنة نيف وتسعين ومائة قاله أحمد بن محمد الهمذاني وهي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم . راجع : معجم البلدان ج : ٤ ص : ٢٨ .

(٩) السلطان الكبير عضد الدولة أبو شجاع محمد الملقب (ألب أرسلان) ابن الملك جغربيك وهو داود بن ميكائـيل بن سلجوق بن نفاق بن سلجوق ونفاق بالتركي قوس حديد ونفاق أول من دخل في دين الإسلام وألب أرسلان أول من قيل له السلطان على منابر بغداد وكان في أواخر دولته من أعدل الناس ومن أحسنهم سـيرة وأرغبهم في الجهاد وفي نصر الإسلام . قتل سنة أربع وستين وأربعمئة وتسلطن ابنه ملكشاه . راجع : الـذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٧٤٨ هـ) : العبر في خبر من غبر تحقيق : د. صلاح الدين المـنجد . مطبعة حكومة الكويت – الكويت – ط. الثانية سنة ١٩٤٨م –ج : ٣ ص : ٢٥٨ – ٢٦٠ ، و ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان وأنباء الزمان – تحقيق : د. إحسان عباس – ط. سنة ١٩٦٨ م – دار الثقافة – بيروت – ج : ٥ ص : ٦٩ .

(١٠) " بـرجوان - خادم العزيز ، الأستاذ أبو الفتوح برجوان الذي ينسب إليه حارة برجوان بالقاهرة ، كان من خدام العزيز صاحب مصر ومدبري دولته ، وكان نافذ الأمر مطاعاً نظر في أيام الحاكم في ديار مصر والحجاز والشام والمغرب ..... سنة ٣٣٨ هـ ، وكان أسود ، وقتل عشية يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر وقيل بل قتل يوم الخميس منتصف جمادي الأولى سنة تسعين وثلثمائة في القصر بالقاهرة بأمـر الحـاكم ضربه أبو الفضل ريدان الصقلي صاحب المظلة في جوفه بسكين فمات من ذلك ، وذكر ابن الصيرفي الكاتب المصري في أخبار وزراء مصر أن برجوان نظر في أمور المملكة في شهر رمضان من سنة سبع

أمـــا عـــن استهزاء العامة بالخصيان والاستدلال بقول المسعودي ، فإن كلام المـــسعودي لا يشير إلى أن الخدم هم الخصيان ، بل إن المسعودي بين سبب تندر العـــوام بالخدم حين وصفهم بالسودان ، فربما كان لونهم وحركاتهم وشكلهم العام مـــن أســـباب التندر بهم ، مع التأكيد على أن الإسلام لا يقر الاستهزاء بالآخرين مهمـــا كانوا ؛ لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكـــون خـــيراً مـــنهم ولا نـــساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ (سورة الحجـــرات:من الآية١١) . وفضلاً عن ذلك فإن ما حكاه المسعودي لا يمثل خلق المجتمع الإسلامي كله في القرن الهجري الرابع، ولا يعد من عادات هذا المجتمع .

وفَـــرقٌ بين قول المسعودي "العوام" ، وبين إطلاق متز الحكم على جميع المسلمين .

ومـــن صور التناقض أيضا ما ذكره متز (ص ١٦٥) عن استحسان الخليفة الأمين (سنة ٢٠٠هـــ) زي الجواري ، واجتذاب قلبه إليهن ، حتى إنه " أبرزهن للـــناس مـــن الخاصة والعامة، فاتخذ الناس الجواري المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن بالغلاميات ".

وهـــذا الكلام يتناقض تماماً مع ما قاله متز من قبل (ص ١٥٧) عن الخليفة الأمـــين هذا من أنه " لما ملك ، بلغ من كلفه بالخصيان أنه طلبهم وابتاعهم وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهن ، وحتى قال أبو نواس [١١] ساخراً :

وثمـــانين وثلثمائة ولما قتل خلف ألف ألف سراويل دبيقي بألف تكة حرير ومن الملابس والفرش والآلات والكتب والطرائف ما لا يحصى كثرة والله أعلم " . راجع : وفيات الأعيان ج : ١ ص : ٢٧٠

(١١) هو الحسن بن هانئ عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء ، شاعر العراق في عصره ، ولد في الأهواز من بلاد خوزستان ، واختلف في نسبه ، نشأ في البصرة ، ورحل إلى بغداد ، واتصل فيها بالخلفاء العباسيين ،

احمدوا الله جميعاً	يا جميع المسلمينا
ثم قولوا لا تملـــّوا	ربنـــا أبق الأمينا
صير الخصيان حتى	صير التعنين دينا
فاقتدى الناس جميعاً	بأمـــير المؤمنينا

وإذا كـــان الأمين قد تأثر بالخصيان حتى ملكوا عليه أمره ونهيه ، ثم تأثر بالجواري حتى جعل العامة يحاكون طريقته في جعلهن يرتدين الأقبية والمناطق ، فهو إذن خليفة غارق في المجون ، لا يصلح لقيادة أمة ، وهذا التناقض في الشخصية غير مقـــنع لشخص ولاه أبوه هارون الرشيد ولاية العهد قبل أن يموت ، ثم إن الحقائق التاريخية لا تؤخذ من شاعر يستخدم في شعره – مثل غيره – غالباً عنصر المبالغة ، وأغلب الظن أن هذه التهم التي ألصقت بالخليفة الأمين، ألصقها الفرس به باعتباره خليفة عربي أباً وأماً ، أو لتبرير قتله ، وتولية المأمون ، ويؤكد هذا الظن أن الخليفة الأمـــين مكـــث في خلافته نحو أربع سنين كانت سنوات صراع مستمر مع أخيه المأمون ، انتهت بمقتل الأمين في بغداد .

خامساً : الاستدلال بما قبل القرن الرابع أو بما بعده :

استدل متز على وجود الخصاء في القرن الرابع الهجري بدليل من القرن الثالث الهجري ، حيث ذكر شغف الخليفة الأمين بالخصيان وسعيه في طلبهم ، فقال (ص ١٥٧) :"دخـــل علـــى الإسلام حوالي عام ٢٠٠هـــ – ٨١٥م بسبب تقلص ظل الروح العربية عادات شرقية قديمة .. " ، فالنص صريح في إثبات الزمن وهو بداية القرن الهجري الثالث ، ثم هو صريح أيضاً في أنها عادة وافدة وليست من العادات التي نشأت في أفكار المجتمع الإسلامي .

ومـــدح بعضهم ، ورحل إلى دمشق ثم مصر ثم رجع إلى بغداد وتوفي بها . واشتهر شعره في الخمريات ، وقد كثر مجونه ، واتهم بالزندقة . راجع وفيات الأعيان .

ثم انـــتقل إلى ذكـــر خبر من القرن السادس الهجري يوضح فيه أن عملية الخـــصاء كانـــت تحدث في مدينة هدية بالحبشة النصرانية ، فقال (ص ١٥٨) :
"وقد جاء في خبر يرجع إلى القرن السادس الهجري[الثاني عشر الميلادي] أن مدينة هدية (١٢) بالحبشة النصرانية هي التي كان يداوي بها الخصيان دون غيرها من بلاد الحبـــشة "،فـــالخبر بعيد عن القرن الرابع الهجري،وعن المجتمع الإسلامي كله، فلا ندري لم ساقه متز هنا ؟؟

والأعجـــب مـــن هـــذا انتقاله بعد ذلك إلى القرن التاسع عشر الميلادي (الـــثالث عـــشر الهجـــري) إلى ديرين قبطيين في صعيد مصر كانا يقومان بعملية الخصاء، وكان دخلهما الأساسي من هذه العملية ، فقال (ص ١٥٨): " على أنه في أوائل القرن التاسع عشر كان في الصعيد بمصر ديران قبطيان دخلهما الأساسي مـــصدره الخصاء ..." ، فهذا الخبر أيضـــاً لا صلة لـــه بالقرن الرابع الهجري ولا بالمـــسلمين ، وإقحامـــه هـــنا ليس بذي قيمة ، ويفقد الباحث مكانته في البحث العلمي، وهو استطراد مخل ، وبعد عن حقيقة البحث العلمي .

ومن صور الاستدلال بما قبـــل القرن الرابع الهجري قول آدم متز(ص ١٦١):
" وحـــدث في عـــام ٢٨٤ هــ - ٨٩٧ م أن وجد الخليفة المعتضد (١٣) خادماً أسود عشية الجمعة برقعة إلى ابن حمدون (١٤) "

---

(١٢) لم أعثر على هذا الاسم في المصادر المتاحة .

(١٣) المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل على الله كانت خلافته ثمانية وعشرين سنة وشهرين وتوفي يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول وقد قارب التسعين واستقر بعده شقيقه المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بعهد منه راجع ابن العماد عبد الحي بن أحمد العكري الدمشق الحنبلي (١٠٨٩ هــ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب – دار الكتب العلمية – بيروت ج ٤ ص ٢٥٥ .

(١٤) ابن حمدون – نديم الخليفة المعتضد ، ويبدو أن الرسالة كانت بغرض استدعاء ابن حمدون للخليفة – والـــنص بأكملـــه منقول عن الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير (٣١٠ هــ) : تاريخ الأمم والملوك – ط. الأولى سنة ١٤٠٧ هــ - دار الكتب العلمية – بيروت – ج ٥ ص ٦١٩ .

وتحـــدث آدم متـــز (ص ١٦٥)عن ظهور "عادة جديدة تستلفت النظر وهي إلباس الخادمات ثوب الخدم"فذكر (ص ١٦٥) حكاية عن المسعودي أنه " لما أفضى الأمر للأمين قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ، اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوســـهن ، وألبـــستهن الأقبية والمناطق ، فماست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعـــثت بهن إليه ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبه إليهن ...." .
وقـــال أيضاً (ص ١٦٥) : " وكانت عريب المغنية المشهورة ، وهي في سن سبع عـــشرة ، وصـــيفة للأمين ...". ومعلوم أن الخليفة الأمين كان قد تولى الخلافة في مستهل القرن الثالث الهجري .

ثم انـــتقل متـــز إلى موضوع آخر سرد فيه قصة أحمد بن كليب النحوي المتوفى عام ٤٢٦هـــ ، مبيناً ولع هذا الرجل الشديد بالغلمان الذي أدى في النهاية إلى وفاتـــه ، وهي قصة منقولة عن رجل من القرن الخامس الهجري الذي توفي فيه ابـــن كليب ، وهذا يدل على عجزه عن إعطاء القارئ ما يقنعه بالفكرة من خلال أحداث القرن الرابع الهجري .

ومـــا من شك في أن استدلال متز بأحداث من القرنين الثالث والخامس الهجرين لأكبر دليل على افتقاره للمادة العلمية التي يريد إثبات حقيقة ما بها، كما أنـــه دلـــيل على عدم موضوعيته، وعدم مراعاته للأمانة والدقة العلمية، وهذا يدل علـــى عجـــزه عن إعطاء القارئ ما يقنعه بالفكرة من خلال أحداث القرن الرابع الهجري .

سادساً : الاستطراد في غير موضعه :

اســـتطرد " متز " في الكلام عند (الخصاء والخصيان) ، فشرّق وغـــرّب ، وتـــنقل بـــين أزمنة مختلفة ، ولم يبدأ كلامه من " القرن الرابع الهجري " – وهو صـــلب الموضـــوع – إلا بعـــد ثلاث صفحات ، حيث ذكر لفظ " القرن الرابع

الهجـــري " صراحة ، في الهامش وليس في صلب الموضوع ، وفي أثناء حديثه عن بطريركين خصيين ، وقال (هامش ٤ ص ١٥٩) نقلاً عن يحيى بن سعيد النصراني: " لم يكـــن الخصيان في الكنيسة الأرثوذكسية يقومون بمهمة الغناء فقط ، بل كانوا يـــستطيعون أن يصيروا قساوسة ، خلافاً لما كان عليه الحال في الكنيسة اللاتينية ، وفي أوائل القرن الرابع الهجـــري والعاشر الميلادي تولى بطريركان خصيان منصب بطريرك على القسطنطينية ذاتها أحدهما بعد الآخر " . وهذا يدل على خلل واضح في مـــنهج العـــرض الذي استخدمه " متز " كما يؤكد أن الاستطراد لم يكن في موضـــعه ، فهـــو لم يقدم تمهيداً ، أو يفسر موضوعاً ، إنما كان يرص مجموعة من النقول المتناثرة التي لا يربطها إلا رابط واحد هو أنها تحت موضوع (الخصاء) .

وذكـــر آدم متز تقسيم كل من المسعودي والمقدسي للخدم ، فقال (ص ١٥٨، ١٥٩) : " ويقـــسم المسعودي الخدم إلى أربعة أنواع : السودان والصقالبة والـــروم والصين " ، و لم يبيّن متز أن الخدم هم الخصيان ، ثم استطرد مرة أخرى فقال (ص ١٥٩) : " ويذكر المقدسي أن الخدم البيض صنفان : **١ – الصقالبة** ، وبلدهم خلف خوارزم، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس ، فيخصون ، ثم يخرجون إلى مـــصر . **٢ – الروم** ، وهم يقعون إلى الشام وأنور ، وقد انقطعوا بخراب الثغور . **وهذا كله استطراد في غير موضعه .**

واستمر متز في الاستطراد ، فذكر في الحاشية رأي ابن حوقل ، ثم كلام الجاحظ في عملية الخصاء ، فقـــال (هامش ٣ ص ١٥٩) : " ويحكي ابن حوقل أيـــضاً أن جمـــيع من يسبى إلى خراسان من الصقالبة فهو يبقى على حاله من غير خـــصاء . وكان يجلب من الأندلس إلى جانب الغلمان والجواري الذين يسبون من إفـــرنجة وجليقية الصقالبة الخصيان أيضاً. ويقول الجاحظ: إن الخصي يعرض لـــه عند قطع ذلك العضو تغيير الصوت حتى لا يخفى على من سمعه أنه خصي ".

ومــن صــور الاستطراد ما ذكره آدم متز عن ممارسة النصارى لعملية الخـصاء ، وعن سبب خصاء الروم لأبنائهم ، وعن كيفية حصول المسلمين على الخـصيان ، وعن مهام الخصيان في الكنيسة ، وعن ممارسة اليهود للخصاء ، وعن عملـية الخصاء نفسها ، وعن ولد الخصي ومصيره في الفقه الإسلامي ، وعن ثمن الخـصي .. إلى غـير ذلك من الأمور التي لا صلة لها بالقرن الرابع الهجري ، أو بالمجتمع الإسلامي في ذلك الوقت .

فمـن ذلك قول متز (ص ١٥٩) : " أما الخدم الصقالبة فكانوا يجلبون إلى مدينة خلف بجانه / هي بشينا / العاصمة القديمة لإقليم ألبيرة ، أهلاً يهود ، وكانوا يقومون بخصائهم " ، ثم يعلق على ذلك (هامش ٥ ص ١٥٩)قائلاً: "وكذلك كان يهود فرنسا يمارسون الخصاء ، وكان يهود فردان بنوع خاص مشهورين بذلك ".

ومـن العجيب أن يهود ألبيرة ، أو يهود فرنسا كانوا يمارسون الخصاء — كمـا يقـرر متز — ومع ذلك لم نره يقول عنهم "احتالوا"، أما عندما تحدث عن المسلمين قال (ص ١٥٨) :" وقد احتال المسلمون للإفلات من حرمة منع الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان ، تاركين لليهود والنصارى إثم هذا العمل الشنيع ".

سابعاً : الإلحاح على فكرة تأثر المسلمين بالعادات الشرقية :

أراد متـز مـنذ بداية حديثه أن يؤكد أن عادة وجود " خصيان " في بيوت الـسادة والكـبراء كانت عند الدول الشرقية القديمة ، وفي الدولة الرومانية حتى يـضفي على هذا الموضوع شيئاً من الاحترام والتقدير، وحتى لا يستشنع القارئ سـلوك بعـض المسلمين الذين كانوا يجلبون الخصيان لمنازلهم ، وهذا من انحراف الفطـرة والعياذ بالله ، فقـال (ص ١٥٧) : " استلزمت العادة في بيوت السادة والكـبراء عـند الدول الشرقية القديمة وفي الدولة الرومانية البوزنطية أن تهيأ هذه البـيوت بالخصيان "وقال في موضع آخر (ص ١٥٧):"دخل على الإسلام حوالي عام ٢٠٠ هـ– ٨١٥ م ،بسبب تقلص الروح العربية، عادات شرقية قديمة ... ".

وقـــال (ص ١٥٩) نقـــلاً عن يحيى بن سعيد : " وسألت جماعة منهم : كـــيف يخصون ؟ فتحصل لي أن الروم يسلون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس ؛ لـــئلا يـــشغلوا بالنساء ، وتؤذيهم الشهوة ، وكان المسلمون إذا غزوا أغاروا على كنائـــسهم ، وأخـــرجوا الصبيان منها ".وكلام " متز " هنا يؤكد أن المسلمين لم يقترفوا إثم الخصاء ، الذي يضفي متز هنا عليه صفة الاحترام في الوقت الذي وصفه في موضع آخر (ص ١٦٠) بالصنيع الشنيع !!!.

وفي هذا النص الأخير المنقول عن يحيى بن سعيد النصراني يلح متز على أن الـــروم كانوا يفعلون ذلك لغرض ديني ، فالهدف الذي يسعون إليه هدف نبيل ، ونـــؤكد هـــنا أن الإسلام لا يتفق مع الفكر الميكافيلي ؛ الذي يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، بل الغاية في الإسلام لابد أن تكون نبيلة ، كما أن الوسيلة لابد أن تكون كذلك ، لكن " متز " يحاول أن يضفي على عملية الخصاء صفة القداسة والكرامة، لـــذلك نجـــده في موضع آخر (هامش ٤ ص ١٥٩) يقول: "لم يكن الخصيان في الكنيسة الأرثوذوكسية يقومون بمهمة الغناء فقط ، بل كانوا يستطيعون أن يصيروا قساوسة ، خلافاً لما كان عليه الحال في الكنيسة اللاتينية ".

ويـــستمر آدم متز (ص ١٦٢) في التركيز على أن الخصـــيان لهم مكانة مـــرموقة في المجتمع،وأنهم يرتقون إلى أعلى المناصب ، وأن من بينهم قواد شجعان مثل : مؤنس القائد(١٥) ، وكذلك فـــائق قائد السامانيين".

ثامناً : تأخر الاستدلال من القرن الرابع :

ســـبق القول : إن أول نص ورد فيه اسم " القرن الرابع الهجري " كان بعد ثلاث صفحات ، وكان في الهامش ، وفي كلام عن بطريركين خصيين ، ثم استمر

(١٥) مـــؤنس الخـــادم الملقب بالمظفر ، كان أمير معظماً شجاعاً منصوراً لم يبلغ أحد من الخدام منزلته إلا كافور صاحب مصر . توفي سنة ٣٢١ هـــ عن نحو تسعين سنة . شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩١ .وأخباره في تاريخ الطبري جـــ ٥ ص ٦٧٢ وما بعدها .

متـــز متجاهلاً الحديث عن هذا القرن نحو صفحتين أخريين ، فبعد خمس صفحات مـــن بدايـــة الموضوع في كلام مضطرب عن الخصيان والخصاء ومن قام بفعله ، وكيفيـــته ، وصفات الخصيان ، وتنقل بين القرون لاحقه على القرن الرابع وسابقه علـــيه ، صرح " متز " أخيراً باسم **القرن الرابع الهجري** في متن الكلام ، وعرض شـــواهد محددة منه ، فقال (ص ١٦٢): "وبالجملة ظهر من بينهم قواد شجعان : وإذا كان عند الروم منهم في القرن الرابع الهجري نارسيس وسلمون[١٦]،فقد كان عـــند المسلمين مؤنس القائد ، وكذلك فائق قائد السامانيين ، فكان أيضاً خصياً ، وكان ثمل هو القائد البحري صاحب الانتصارات بطرسوس ، كما كان عند الروم الأمير تكيتاس الذي انتصر على صقلية [١٧] ، فقد كان خصياً أيضاً ، وفي الحرب البحرية التي وقعت بين أسطول الفاطميين وأسطول الخليفة عام ٣٠٧ هــ- ٩١٩ م كان الأميران اللذان توليا القيادة خصيين ".

ويلاحظ على هذا النقل ما يلي :

أولاً : الخـــصيان في الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري كانوا في موقع الصدارة ، فهناك القائد العام ، والقائد البحري ، .... وهذا يؤكد أنهم كانوا رعايا لهم شأن في دولة الإسلام .

ثانياً : الكلام عن الخصيان في هذا الوقت – وهو القرن الرابع الهجري – لا يبين شيئاً من الأخلاق أو العادات ، وهو بهذا يبعد كل البعد عن عنوان الفصل.

ثالثاً : عملية الخصاء لم يقم المسلمون بفعلها،لا في القرن الرابع الهجري، ولا قبله ، ولا بعده .

---

(١٦) لم أعثر لهذين الاسمين على ترجمة في المصادر المتاحة .

(١٧) صِـــقِلِّية : بـــثلاث كسرات وتشديد اللام والياء أيضاً مشددة – وبعض يقول بالسين – وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام : من جزائر بحر المغرب مقابلة إفريقية ، وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية مسيرة سبعة أيام ، فيها ثلاثمائة ونيف وعشرون قلعة ، كثيرة الحصون وبها عدة أنهار وبساتين – راجع معجم البلدان لياقوت جـــ. ص ٤١٦ – ٤١٩ .

رابعـــاً : لم نر في القرن الرابع الهجري من سخر من القواد الخصيان، غير ما ذكـــرته كـــتب الأدب – و لم يـــرد عـــند متز – من سخرية المتنبي من كافور الأخـــشيدي ، وكـــان ذلك بسبب الوحشة التي حدثت بينهما وأدت إلى خروج المتنبي من مصر وهجائه لكافور .

تاسعاً : غمز الخلفاء والعلماء والأمراء :

لقـــد تكلم متز عن **الخليفة الأمين** ناقلاً كل ما يشين شخصيته ، من اهتمامه بالغلمان والغلاميات والشغف بهم ، إلى تقريبه الخصيان والولع بهم ، بل نقل سب أبي نـــواس لـــه ، متغافلاً السبب الذي دفعه لذلك ، والذي أدى إلى حبسه ؛ بعد أن بلغ الخليفة الأمين عن أبي نواس تصريحه بالزندقة ، فضلاً عن مجونه وخلاعته .

وكان ينبغي على متز أن يدرك أنه لا يؤخذ بقول خصم في خصمه ، وبخاصة في مثل هذه الحالة . ونص الرواية التي بترها متز ؛ ليغمز الخليفة هو –كمـــا أورده الطـــبري: "ولمـــا طال حبس أبي نواس قال في حبسه ..."ثم ذكر الشعر الذي نقله متز، وسبقت الإشارة إليه.

أما ما ذكره "متز" عن الحاكم بأمر الله الفاطمي (ص ١٦٨) ، فهو نقل عن يحيى بن سعيد النصراني ، يقول فيه : " ويحكى عن الخليفة الحاكم بأمر الله بمصر أنه عـــنّ لـــه في أثناء ركوبه بالليل رأي سخيف، فكان يأمر أحد رجاله بأن يأتي شـــيخاً خلـــيعاً بمـــشهد منه ومن الجمع الحاضر ، ويضحك من هذا المنظر القبيح ويطرب له ".

وإذا كـــنا لا نقر الحاكم بأمر الله الفاطمي على فعله هذا أو غيره من الأفعال التي اشتهر بها، إلا أن الملاحظ هنا هو قول متز عن الحاكـــم (الخليفة)، وهذا ما لا يـــوافقه علـــيه السيوطي في مقدمة كتابه تاريخ الخلفاء، حيث لم يذكر الفاطميين ضمن الخلفاء المسلمين ، وسماهم العبيديون ، نسبة إلى عبيد الله المهدي الذي ادعى نـــسبه بآل البيت . ثم إن متز لم يجد من العبيديين (أو الفاطميين) من يتكلم عنهم

ســـوى الحاكم بأمر الله الذي تؤكد كتب التاريخ أن حياته في الحكم مرت بأربعة أدوار متباينة،اضطربت فيها سياسته بشكل كبير ؟

أما عن **غمز العلماء** فقد ذكر متز مجموعة من القصص في هذا الشأن ، تشير إلى اتهام العلماء بالتولع بالغلمان، وهذه القصص ذكرت على النحو التالي :

– " وقد كان التولع بالغلمان سبباً في قصص غرامية شيقة فيحكى عن أبي عـــبد الله بـــن محمد نفطويه المتوفى عام ٣٢٣هـــ-٩٣٥م ، و كان عالماً بالعربية واللغـــة والحـــديث ، أنه كان بينه وبين محمد بن داود الأصفهاني الفقيه – صابئ المـــذهب – المسمى باسمه ، مودة أكيدة ، وتعاف تام، وكان ابن داود يهوى أبا الحـــسن محمد بن جامع الصيدلاني ، هوى أفضى به إلى التلف ، فدخل عليه رجل في مرضـــه الـــذي مات فيه ، فقال له : يا سيدي ما بك ؟ فقال : حب ما تعلم أورثـــني ما ترى !!! ثم قال : حدثني سويد بن سعيد الحدثاني عن أبي يحيى القتات عـــن مجاهد عن ابن عباس أن النبي ﷺ : " من حب فعف وكتم ، ثم مات ، مات شهيداً". ثم مات من ليلته في عام ٢٩٧ هـــ ، فيقال : إن نفطويه [١٨] تفجع عليه وجزع جزعاً عظيماً ، ولم يجلس للناس سنة كاملة " .

ويلاحـــظ أن أحداث القصة كانت في القرن الثالث الهجري ، كما أن حزن الصديق على صديقه مدة من الزمن والتفجّع عليه ليس فيه أدنى غضاضة ، أمـــا كون موضوع الولع بالغلمان تسبب في ظهور (قصص شيقة)، فلا ندري

(١٨) نفطـــويه : الإمام الحافظ النحوي العلامة الأخباري أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي الواسطي المشهور بنفطويه صاحب التصانيف ، ولد سنة ٢٤٤هـــ وكان متضلعاً من العلوم ، .... ومن محفوظه نقائض جرير والفرزدق وشعر ذي الرمة خلط نحو الكوفيين بنحو البصريين وصار رأساً في رأي أهـــل الظاهر ، وكان ذا سنة ودين وفتوة ومروءة وحسن خلق ،وله نظم ونثر ،صنف : غريب القرآن ، وكـــتاب المقنع في النحو ، وكتاب البارع ، وتاريخ الخلفاء في مجلدين وغيرها.مات سنة ٣٢٣ هـــ .راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء ج : ١٥ ص : ٧٥-٧٧ ترجمة رقم ٤٢ .

لمـــن تكون هذه القصص شيقة ؟! فالمسلم السوي الطبع لا يتشوق إلى الساقط من القول ، فضلا عن الاستماع إليه أو. التلذذ به .

أما الحديث المذكور هنا فقد ورد في كتاب ذم الهوى لابن الجوزي فقط و لا وجود لـــه في كتب السنة الصحيحة، ولعله ضعيف ، فإن ابن الجوزي لم يحكم علـــيه ، أو يعـــزه إلى غـــيره من العلماء ، ولفظه عنده : "حدثنا سويد بن سعيد الحدثاني قال : حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: " من عشق وكتم وعف فمات فهو شهيد " ، ثم أورده بألفاظ متقاربة منها ما هو من طريق مجاهد ، ومنها ما هو من طريق عكرمة ، مثل قـــول ابن الجوزي : "وبالإسناد قال :حدثنا الزارع، حدثنا محمد بن خلف حدثنا زكـــريا بن يحيى الكوفي ، حدثنا محمد بن حريث عن مطر عن أبيه عن أبي سعيد الـــبقال عـــن عكرمة عن ابن عباس قال : " من عشق فعف فمات دخل الجنة " ، وقد ورد معنى (كتم) عند ابن الجوزي أيضاً، قال : " قال الزارع : قال لنا عمر بن زكريا المؤدب : معنى (وكتم) من يحبه أنه يحبه ".

ومـــن صور غمز العلماء ما ذكره " متز " عن " أحمد بن كليب البحوي المـــتوفى عـــام ٤٢٦ هـــ - ١٠٣٥م أنه كان يحضر مجلس أحد النحاة في جماعة ، وكـــان معهم ولد لأحد القضاة يسمى أسلم ، وكان من أجمل من رأت العيون ، فاشتد كلفه بأسلم ، وصرف فيه القول ، إلى أن فشت أشعاره فيه ، وجرت على الألـــسنة ، وتنوشدت في المحافل " .... وذكر " متز " القصة بطولها ، وخلاصتها أن ابـــن كلـــيب قد اشتد ولعه بالغلام الذي امتنع عن مجلس العلم ، فاحتال ابن كلـــيب لرؤيته ، وانتهى الأمر به إلى المرض ثم الموت ، وقد أسف " أسلم " عليه كثيرا ، وكان يزور قبره ترحما عليه (١٩) .

(١٩) الحكاية ذكرها ابن كثير بطولها في البداية والنهاية (ج ١٢ ص ٣٨) ، وفيها بعض الاختلافات اللفظية بينها وبين ما ذكره متز .

لقد اكتفى متز بنقل ما يشين لشخصية أحمد بن كليب ، ولم يعلق على هذه الرواية ، ليؤكد أن هذه الأخلاق هي أخلاق العلماء في ذلك العصر ، وكان ينبغي لفت النظر إلى بعض الدروس المستفادة من هذه الرواية ، مثل وجود مجالس للعلم ، وهـي مـن أبرز عادات هذا العصر ، ومجالس للشعراء .كما لم يبين متز أن هذا الحدث وقع في الأندلس .

ويهمنا هنا إلقاء ضوء بسيط على شخصية **أحمد بن كليب** ، **وشخصية أسلم**

فأمـا أحمـد بن كليب ، فقد قـال عنه ابن الأثير : " الأديب الشاعر الأندلسي ، وحديثه مع أسلم بن أحمد بن سعيد مشهور .

ولأحمد رواية مسندة إلى رسول الله ﷺ ذكرها صاحب بغية الطلب : "رواية أحمد بن كليب ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن داود بن عيسى الكرخي قـال : حدثـنا إبراهيم بن الهيثم البلدي قال : حدثنا آدم قال : حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: " المؤمن الذي يخـالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على آذاهم " .

أما أسلم ، فهو " أسلم بن أحمد بن سعيد بن أسلم بن عبد العزيز من أهل قـرطبة ، يكنى أبا الحسن ، أخذ النحو عن أبي عبد الله بن خطاب، وسمع الحديث مـن أبي عبد الله بن مفرح وغيره " . وقال صاحب النجوم الزاهرة : " كان أحمد هـذا – يعـني ابن كليب– يهوى أسلم بن حمد بن سعيد قاضي قضاة الأندلس، وكان أسلم من أحسن أهل زمانه فافتتن به ، وقال فيه الأشعار الرائقة " .

وقـصة أحمـد بن كليب مع شهرتها – كما يقول ابن الأثير – يحيط بها الشك ، إذ لا يعقل أن يتعامل أديب مع قاضي القضاة بهذه الطريقة، وليست هذه من سمات علماء الأندلس .

– ورجع " متز " من القرن الخامس الهجري حيث قصة ابن كليب إلى القرن الـرابع الهجري فقال (ص ١٧١ – ١٧٣) : " وثم قصة أخرى حكاها أبو بكر الـصنوبري الشاعر الشامي المتوفى عام ٣٣٤ هـ – ٩٤٥م [٢٠] ، قـال : كان بالـرها [٢١] ورّاق يقـال لـه سعد ، وكان في دكانه مجلس كل أديب ، وكان حـسن الأدب يعمل شعراً رقيقاً ، وما كنا نفارق دكانه أنا والمعوج الشامي [٢٢] الشاعر وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر ، وكان لتاجر بالرها نصراني من كبار تجارهـا ابن اسمه عيسى من أحسن الناس وجهاً ، وأحلاهم قداً ، وأظفرهم طبعاً ومـنطقاً ، وكـان يجلس إلينا ، ويكتب عنا أشعارنا ، وجميعنا يحبه ، ويميل إليه ، وهـو يومـئذ صـبي في الكتاب ، فعشقه سعد الوراق عشقاً مبرحاً ، وعمل فيه الأشعار ..

ثم شـاع بعشق الغلام في الرهـا خبره ، فلما كبر وشارف الأشلاف[٢٣] أحب الرهبنة ، وخاطب أباه وأمه في ذلك ، وألح عليهما حتى أجاباه ، وخرجا به إلى دير زكي بنواحي الرقة [٢٤] ، وهو في نهاية حسنه ، فابتاعا له قلاية ، ورفعا إلى

(٢٠) أبـو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الضبي الحلبي الشاعر ، شعره في الذروة العليا ، كان حده فيه حدة وذكاء ، فقيل له : إنك لصنوبري الشكل ، فعرف بذلك . راجع : ابن العماد : شذرات الذهب : ج ١ ص ٣٣٥ . والذهبي : العبر في خبر من غبر ج ٢ ص ٢٣٤ . وبغية الطلب في تاريخ حلب ج ١٠ ص ٤٧٦٥ .

(٢١) الرها : بضم أوله والمد والقصر : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام ، بينهما ستة فراسخ ، سميت باسم الذي استحدثها وهو الرهاء بن البلندي بن مالك بن وعر ن وقيل غير ذلك ، وينتسب إليها عدد من العلماء . راجع ياقوت : معجم البلدان : جـ. ٣ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢٢) لم أعثـر له على ترجمة ، ولعله بسبب عدم ذكر اسمه صراحة ، والمعوج قد يكون لقباً أطلقه الصنوبري على صاحبه .

(٢٣) لم أعثـر لكلمة (الأشلاف) في القاموس على معنى ، ولعل المقصود منها أن الغلام بلغ سن الرشد . وهذا ظاهر من السياق .

(٢٤) الـرقة :بفـتح أوله وثانيه وتشديده ،وأصله كل أرض إلى جنب واد ينبسط عليها الماء . وهي مدينة مـشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام، ينسب إليها جماعة من أهل العلم .راجع :ياقوت : معجم البلدان :جـ.٣ ص ٥٨ .ودير زكي بمدينة حمص – تاريخ دمشق لابن عساكر جـ.٢ ص ٣٥.

رأس الديـــر جملـــة من المال عنها ، فأقام الغلام فيها . وضاقت على سعد الوراق الدنـــيا بما رحبت ، وأغلق دكانه ، وهجر إخوانه ، ولزم الدير مع الغلام ، وسعد هذا في خلال ذلك يعمل فيه الأشعار .

ثم إن الـــرهبان أنكروا على الغلام كثرة إلمام سعد به ، ونهوه عنه وحرموه إن أدخلـــه ، وتـــوعدوه بإخراجه من الدير إن لم يفعل ، فأجابهم إلى ما سألوا من ذلـــك . فلمـــا رأى سعد امتناعه منه شق عليه ، وخضع للرهبان ، ورفق بهم فلم يجيـــبوه ، وقالوا : في هذا علينا إثم وعار ، ونخاف السلطان ، فكان إذا وافى الدير أغلقـــوا الـــباب في وجهه ، ولم يدعوا الغلام يكلمه ، فاشتد وجده ، وزاد عشقه حـــتى صار إلى الجنون ، فخرق ثيابه ، وانصرف إلى داره ، فضرب جميع ما فيها بالنار ، ولزم صحراء الدير ، وهو عريان يهيم ، ويعمل الأشعار ويبكي .

قـــال أبو بكر الصنوبري : ثم عبرت يوماً أنا والمعوج من بستان بتنا فيه ، فـــرأيناه جالـــساً في ظل الدير ، وهو عريان ، وقد طال شعره ، وتغيرت خلقته ، فـــسلمنا علـــيه وعذلناه ، وعاتبناه ، فقال : دعاني من هذا الوسواس، أتريان ذلك الطائر على هيكل ، وأومأ بيده إلى طائر هناك ، فقلنا : نعم ، فقال : أنا وحقكما يـــا أخـــوي أناشده منذ الغداة أن يسقط فأحمله رسالة إلى عيسى ، ثم التفت إليّ وقال: يا صنوبري .. معك ألواح ؟ قلت : نعم . قال : اكتب :

بدينك يا جماعة دير زكي	وبالإنجيل عندك والصـــليب
قفي وتحملي عني ســـلاماً	إلى قمر على غصن رطـــيب
حماه جماعة الرهـــبان عني	فقلبي ما يقـــر من الوجـــيب
وقالوا : رأينا إلـــمام سعد	ولا والله مـــا أنا بالـــمريب
وتولى سعدك المسكين يشكو	لهيب جوى أحر من اللهيب
فصله بنظرة لك من بعـــيد	إذا ما كنت تمنع من قـــريب
وإن أنا مت فاكتب حول قبري	محب مات من هجر الحبيب

رقيب واحد تنغيص عيشي فكيف بمن له مائتا رقـيب

ثم تـركنا وقام يعدو إلى باب الدير وهو مغلق دونه ، وانصرفنا ، ومازال كـذلك زمانـاً ، ثم وجد في بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدير ، وكان أمير البلد يومـئذ العـباس بن كيغلغ ، فلما اتصل ذلك به وبأهل الرها خرجوا إلى الدير ، وقالـوا : ما قتله غير الرهبان ، وقال لهم ابن كيغلغ : لابد من ضرب رقبة الغلام وإحراقه بالنار ، فافتدى النصارى نفوسهم وديرهم بمائة ألف درهم . فكان الغلام بعـد ذلـك إذا دخل الرها لزيارة أهله صاح به الصبيان : يا قاتل سعد الوراق ، وشـدوا علـيه بالحجارة يرجمونه ، وزاد عليه الأمر في ذلك حتى امتنع من دخول المدينة، ثم انتقل إلى دير سمعان ، وما أدري ما كان منه ".

هكـذا نقـل متـز القصة عن أبي بكر الصنوبري من كتـاب الإرشاد لـيـاقوت ، وقد ذكرتها بنصها لأنها في القرن الرابع الهجري ، وهناك مجموعة من الملحوظات ينبغي الوقوف عندها ، وهي :

-جـاءت الحكاية للاستدلال على موضوع الولع بالغلمان ، علما بأن القصة تحـوي أموراً أكثر أهمية من هذا ، مثل : (مجالس الشعراء الشاميين والمصريين) ، فهي عادة اجتماعية ذات أهمية ، ومع ذلك أغفلها متز تماماً، أو ربما أغفل المترجم تعليق المؤلف عليها .

-ومـثل : (معاملة أهل الذمة في الدولة الإسلامية) ، فالتاجر النصراني من كبار التجار في الرها ، وولده يختلط بالشعراء ويجالسهم ، بل ويكتب عنهم ...

-ومـن الغريب أن يقال عن هذا الصبي النصراني أنه كان في الكتاب،إلا أن يكـون قـد أسلم هو وأبوه، ولكن ظاهر القصة يؤكد عكس ذلك ، فقد انتقل الـصبي إلى ديـر زكي يريد الرهبنة.وقد يكون المقصود أن الصبي في سن الغلمان الذين يختلفون إلى الكتاب،وهذا غير منطقي.

- هــذه قــصة لرجل بعيد عن الإيمان الصحيح ، لأنه لا يدري أن من أحب قــوماً حــشر معهــم ، وأن الولع الذي يفضي بصاحبه إلى الجلوس بجوار الدير النصراني لا يجوز شرعاً .

- وفــضلاً عــن ذلك فهذه حكاية فردية ، لا ترقى لدرجة أن تكون عادة اجتماعية ، فهي قصة وراق عديم الفقه والنظر .

- لقــد كان عيسى الذي ولع به سعد نصرانياً ، أما سعد فقد حلف بالإنجيل وبالــصليب ، وهو فيما يزعم مسلم ، وأعتقد أن مسلماً لا يفعل ذلك ، ولا تصل به الأمور إلى هذا المستوى المتدني.

- والقــصة بها بعض المغالطات العجيبة ، مثل كون الصبي النصراني كان في الكــتاب ، وإن كنا قد حاولنا توجيه كلامه هذا ، كما أن القصة بها كلمات غير واضحة مثل (شارف الأشلاف) .

- وأخيرا يظهر من اهتمام " متز " بقصص الولع بالغلمان وتركيزه عليها أن لــه أهدافا غير حسنة ، تتعارض والأمانة العلمية ، وقد صــوّر الحضارة الإسلامية تصويرا قبيحاً خلاف الواقع المشرق الذي كانت عليه .

ثم يــنقل متــز (ص ١٧٣) عن أحد المستشرقين وهو(ويستينفلد) قوله : "وكان بعض العلماء يمنعون الشبان غير الملتحين من حضور دروسهم ، ولعل ذلك لخــوفهم من مثل هذه القصص الغرامية ، وكان بعض شديدي الإقبال على التعلم مــن الــصبيان يــتخذون لحى مصطنعة ، ليتمكنوا من التسرب إلى مجالس أولئك العلماء ".

ولا شك أن غمز العلماء في ذلك النص واضح ، ولم نسمع من فعل ذلك مــنهم بالــتحديد ، وكــلام متز ليس فيه تحديد لعالم ما فعل ذلك الأمر، وكلمة (بعض) تدل على عدم الدقة ؛ لأنها نكرة ، وعامة .

ولم يكتف متز بغمز الخلفاء والعلماء في قرون مختلفة بل غمز أيضاً الأمراء والقـادة الكـبار في الدولة ، ومن ذلك قوله عن بختيار البويهي (ص ١٦٧) : " على أنه يحكي عن الأمير بختيار البويهي أنه أسر له في إحدى المواقع غلام تركي ، فجـن عليه جنوناً ، وحدث له من الحزن ما لم يسمع بمثله ، وزعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالمملكة والانسلاخ منها ومن النعمة، وما زال يظهر الشكوى حتى خف ميزانه عند الناس ،وسقط من عيونهم،ولكن بختيار هذا كان سيئ الحكم مذموماً " .

هذا ما نقله عن بختيار ، والباحث يتشكك في هذا الكلام لما عرف عن عز الدولة بختيار من أنه كان " من أحسن الناس وأشدهم قوة كان يصرع الثور الجلد بيديه من غير حبال ولا أعوان، يقبض على قوائمه ويطرحه إلى الأرض حتى يذبح وكان يقبض على رقبتي غلامين بيده وهو قائم وهما قائمان ويرفعهما من الأرض ، وهمـا يـصيحان ويضطربان ولا يمكنهما الخلاص وكان من قوة القلب على أمر عظيم ... " .

وواضـح أن متز أخذ أسوأ ما عند بختيار ، تاركاً السمات الأخرى التي تكمـل صـورة الشخـصية ، وإنـه لمن الغريب أن يكون رجل بمثل هذه القوة والشجاعة مغلوباً على أمره من غلام ، بفقده يتغير حاله ، ويرى أنه أهم من الملك الـذي في يديه !! ، فإذا ما وضعنا في الاعتبار ما فعله بختيار مع الروم ، وانتصاراته عليهم ، وعرفنا أن الروم نصارى ، وأن متز نصراني ، أدركنا سراً من أسرار تحامل متز على هذا الرجل ، وتصيد أخطائه !! . فضلاً عن التشكك في هذه الرواية عن بختيار ، إذ ربما كانت من الدسائس عليه ؛ للتقليل من شأنه .

ولـيس بختـيار وحده هو الذي غمزه متز ، بل هناك شخصية لها أثر في العلاقـات البيـزنطية الإسـلامية مـثل بختيار تماماً، وهي شخصية سيف الدولة الحمداني،فقـد قال متز (ص ١٦٨): " بل يحكى أن سيف الدولة صاحب حلب

المـــشهور بحـــروبه وغـــزواته كان لـــه غلام يسمى باسم مؤنث وهو ثمل وكان عزيـــزاً عليه "، ثم يستطـــرد " متز " قائلاً (ص ١٦٨) : " وكان من ذوق ذلك العصر أن يكون الغلام الذي يُستَهْتَر به أَغَنّ الصوت ، غنّاجاً ، ألثغ السين " .

ونـــبدأ بالسؤال الذي يطرح نفسه هنا : هل يكون ثمل عزيزاً على سيف الدولـــة ، وفي الوقت ذاته يكون ممن يستهتر بهم ؟! . إن الواضح من هذين النقلين أن متـــز يحاول إلصاق تهمة ولو قليلة بهذه الشخصية الفذة التي غزت الروم أربعين غـــزوة ، ودوخـــتهم ؛ لـــذا لم يستطع متز أن يقول إن سيف الدولة كان مولعاً بالغلمـــان ، وإلا كان مخالفاً للحقيقة بشكل صارخ ؛ لذلك اختار ألفاظاً لا تضعه في موقـــف الاتهـــام ، فقال : " له غلام يسمى باسم مؤنث "، و ماذا في هذا؟ إن الأسمـــاء لا تعلـــل ، ثم نقول : هل سيف الدولة هو الذي أسماه بذلك الاسم ؟! الجـــواب لا يملكـــه متز، و لم يجد متز سوى أن يقول عن سيف الدولة والغلام : " وكان عزيزاً عليه " ، ولا ندري ما الغضاضة في ذلك !!!! .

والأعجـــب أننا نجد متز ينتهز فرصة تسمية الغلام باسم مؤنث ثم يصدر حكماً عاماً عن ذوق العصر كله في الغلمان والأعجب منه تدخل المترجم وتعليقه علـــى كـــلام متز (هامش ٢ ص ١٦٨) بنقل بيتين من الشعر نقلاً عن الإرشاد لياقوت يقول فيهما :

" وشادن قلت له ما اسمكا ... فقال لي بالغنج عبـــــاث

فصرت من لثغته ألـــثغـــاً ... فقلت أين الكاث والطاث "

ولا أدري لماذا ساق " أبو ريدة " هذين البيتين ؟ أيمكن أن يكون قد تأثر بـــ "متز" فأصبح يجمع هو الآخر كل ما لـــه صلة بالموضوع مما نسيه أو غفل عنه متز ؟! أم هو نوع من الاستملاح لهذين البيتين؟؟!! أم أن "متز" هو الذي وضعهما في الهامش ، وأن المترجم استطاع ترجمتهما حرفياً، فأضاف اسمه بعدهما ليبين قدرته اللغوية الفائقة ؟!

موقف الفقهاء من الغلمان – كما يراه متز :

قـــبل أن يتكلم متز عن موقف الفقهاء من الغلمان تحدث عن قضية مهمة هي (**الروح العربية**) فقال (ص ١٦٥) : " ولم يكن هذا الولوع بالغلمان شأن طوال العصور التي كانت السيادة فيها للروح العربية ، ولم يكن ثم ما يدعو الفقهاء الأولون إلى الكلام في ذلك ".

فما المقصود بالسيادة للروح العربية ؟ هل قصد به سيطرة الجنس العربي ؟ إن كـــان كـــذلك ، فهو مخالف للواقع ، فالقرن الثالث الهجري شهد عصر نفوذ الأتـــراك ، ثم جاء عصر النفوذ البويهي نحو منتصف القرن الرابع الهجري !! أم هل قصد بسيادة الروح العربية سيادة الروح الإسلامية ، لكن قلمه لم يطاوعه ؟!

ومع ذلك يمكن تسجيل الملحوظات التالية :

– اهـــتم المـــسلمون بالغلمان وولعوا بهم حتى صار ذلك ظاهرة عامة،وهو يخالف الواقع التاريخي.

– كان لسيادة الروح العربية أثر في عدم الولوع بالغلمان ؛ مما يؤكد أنها عادة مـــستوردة ، وليس للعرب اهتمام بها سابقاً ، وهذه مندوحة للعرب ، وليست ذماً لهم .

– إن عـــدم كـــلام الفقهـــاء عن الولوع بالغلمان كان بسبب سيادة الروح العـــربية، وأنه لما ظهرت الروح غير العربية ، أو بالأحرى غير الإسلامية وفشا أمر الولوع بالغلمان دعت الحاجة لكلام الفقهاء في ذلك الموضوع .

ثم يقـــول متز عن فقهاء القرن الرابع : " أما في القرن الرابع فقد اختلف الفقهاء في اللواط بالغلمان اختلافاً بيناً فأراد البعض أن يعتبروه كالزنا ، وأن يجعلوا عقابه القتل والرجم ، وأراد آخرون أن يفرقوا بين اللواط بالمملوك، وغير المملوك، وقالوا : إن الحد لا يلزم الأول بخلاف الثاني ، والأكثرون على أنه لا حد فيه، وهو يوجب التعزير من القاضي".

ويلاحـــظ أن متز قد اعتمد في حكمه السابق على مصدرين غير فقهيين ، وهمـــا الخراج لقدامة بن جعفر وطبقات السبكي ، وهما تاريخيان، فضلاً عن أن متـــز لم ينتبه إلى أن اختلاف الفقهاء لم يكن في العقوبة ، فقد اتفق الجميع على وجوب العقوبة ، وإنما اختلفوا في توصيفها أهي حد أم تعزير ؟!

والسبب في هذا الاختلاف ناشئ من مدى قبول هذا الإمام أو ذاك للروايات الـــواردة في هـــذا الـــشأن ، وثبوت صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ أو إلى أعمال الصحابة رضوان الله عليهم .

أمـــا أن يقـــال : إن الاختلاف في حد اللواط نشأ بسبب الولوع بالغلمان، وتقلـــص الروح العربية ، فهو كلام غير مقبول بهذه الطريقة ، وإنما ينبغي القول : إن عقوبة اللواط ثابتة، لكن كثرة كلام الفقهاء في الموضوع واختلافهم في مقدارها وتوصيفها يرجع إلى أنها فشت بسبب ابتعاد بعض الناس عن أمور هذا الدين ، فإن القـــرآن الكـــريم حـــذر من هذا الفعل الشنيع، وعدّه ارتكاساً للفطرة ، علماً بأن الاختلاف في تطبيق العقوبة ووصفها سبق القرن الرابع الهجري ، حيث كان لأبي حنـــيفة وتلاميذه – وهم في القرن الثاني الهجري – آراء متباينة (٢٥) ، كما كان للثوري وأحمد — وهم في القرن الثالث الهجري آراء في هذا الأمر (٢٦) ، وكذلك

---

(٢٥) قال السعدي : " حد اللواط وأما حد اللواط فإنه كحد الزنا بعينه في قول أبي يوسف ومحمد وأبي عبد الله وفي قول أبي حنيفة لا حد في اللواط وفيه التعزير لأن اللواط عنده كإتيان البهائم وكإتيان النساء فيما دون الفـــرج وفي قـــول مالـــك فيه الرجم أحصن اللواطي أم لم يحصن وهو قول الشعبي " . راجع : فتاوى السعدي جـــ. ٢ ص ٦٤٠ .

(٢٦) قـــال فتح القدير " واختلفوا في اللواط هل يقتضي التحريم أم لا فقال الثوري إذا لاط بالصبي حرمت علـــيه أمه وهو قول أحمد بن حنبل قال إذا تلوط بابن امرأته أو أبيها أو أخيها حرمت عليه امرأته " . راجع : فتح القدير جـــ. ١ ص ٤٤٦ .

ورد الاختلاف في القرون المتأخرة عند ابن كثير[٢٧] ، وكذلك عند ابن تيمية [٢٨] وغيرهما .

وهـذا الاخـتلاف – الفرعـي – يعد من مفاخر الفقه الإسلامي لعدة أسباب، لعل من أهمها :

أولاً: لأنـه اخـتلاف في الفروع وليس في الأصول،فالعقوبة واجبة و لم ينكرها أحد من الفقهاء قديماً وحديثاً.

ثانـياً :لأنه دليل على تحري العدل في العقوبة باستنباط الحكم العادل من الأدلة الشرعية المعتبرة

ثالـثاً : لأنـه يؤكد تباين العلماء في تحصيل المعرفة ، وتباين قدراتهم في الاستنباط .

رابعاً : لأنه يؤكد مدى حرص علماء الأمة الإسلامية على طهارة المجتمع الإسلامي ونظافته ونقائه .

أصل عادة اللواط بالغلمان دخيل :

يعـتقد متـز أن أصل عادة اللواط بالغلمان دخيل على المسلمين ، وهو بهذا منـصف، غير أن ما يسترعي الانتباه أنه لما عرض الموضوع الذي يشير إلى إنصافه نـسبه لأخـبار المسلمين المأثورة، كأنه يريد أن يجعلها في حكم الأخبار المدعاة، فـيقول (ص ١٦٦): "وفي الأخـبار المأثورة عند المسلمين أن هذا اللواط أتى من

---

(٢٧) قـال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : " (اللذان يأتيانها منكم فآذوهما) أي واللذان يفعلان الفاحشة فآذوهما قال : ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وغيرهما أي بالشتم والتعبير والضرب بالنعال وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم وقال عكرمة وعطاء والحسن وعبد الله بن كثير نزلت في الرجل والمـرأة إذا زنـيا وقال السدي نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا وقال مجاهد نزلت في الرجلين إذا فعلا لا يكنى وكأنه يريد "اللواط والله أعلم" . راجع تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٦٣ .

(٢٨) قـال ابـن تيمية في الفقه: "وأما اللواط فمن العلماء من يقول حده كحد الزنا وقد قيل دون ذلك والـصحيح الذي اتفقت عليه الصحابة أن يقتل الاثنان الأعلى والأسفل سواء كانا محصنين أو غير محصنين . راجع : رسائل وفتاوي ابن تيمية في الفقه جـ ٢٨ ص ٣٣٤ .

الـــشرق مـــع جيوش العباسيين الذين جاءوا من خراسان لأن بلاد الأفغان كانت مشهورة بذلك في القرن الثالث والرابع للهجرة،ثم شاع واستقر في القرن الرابع".

وتنبغـــي الإشـــارة هـــنا إلى أن بلاد الأفغـــان فتحت منذ القرن الهجري الأول ، ولم يـــرد في كتب السابقين أو اللاحقين عن الأفغـــان ارتكاب مثـــل هـــذه الفـــاحـــشة فكـــيف ظهـــرت فجـــأة في القـــرنين الثالث والرابع الهجريين ؟!

لقـــد اســـتقى متز هذه المعلومات من ديوان أبي نواس ، والمضاف والمنسوب للـــثعالبي، ثم اســـتطرد في الموضوع معلقاً بهذا التعليق (ص١٦٦): "حكى الجاحظ (المـــتوفى ٢٥٥ هـــ - ٨٦٨م) في كتاب المعلمين سبب حدوث هذه الفاحشة في الخراســـانيين ، وهو خروج الأجناد في البعوث مع الغلمان ، وذلك حين سن أبو مـــسلم ألا يخـــرج النساء مع الجند خلافاً لبني أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النـــساء مـــع العسكر . فلما طال مكث الغلام مع صاحبه في الليل والنهار وعند اللـــباس والتستر – وهم جنود فحول تقع أبصارهم على خد كخد المرأة وردف كردفها وساق كساقها – تولدت الفاحشة " (نقلاً عن حمزة الأصفهاني في ديوان أبي نواس).

لقد رأينا مدى إلحاح متز على تشويه صورة القرن الرابع،خلفاؤه، وقادته، وعلمـــاؤه، بل وعامته وأخذ ما استدل به على آرائه من مصادر غير مباشرة،أو من مصادر عرف أصحابها بالمجون.

ونسدل الستار على هذه الصفحة من كلام متز الذي خالف فيه روح الحـــياد العلمـــي، وصـــور مجتمعنا الإسلامي في عصر من أبهى عصوره بمجتمعٍ الخـــصاء فيه عادة أصيلة ، والولع بالغلمان من عاداته التي وصمت به ولم ينفك عنها ، حتى ملأ الحديث عنها بيوت الخلفاء والقادة والعامة والفقهاء !!! وهذا تجنٍ واضح . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

عاشرا : غمز الشريعة الإسلامية ووصفها بالقسوة :

قال متز : " أما البغاء ، فليس هو بالشيء الذي يستعيض به العزاب عن الزواج – كما يرى المفكرون العقليون من علماء الاجتماع اليوم (٢٩) – بل هو من حيث أصله : نظام في الديانات القديمة غريب في بابه ، شأنه شأن نظام الخصيان . وقد انتشر البغاء في الإسلام – على الرغم من إباحة الزواج بأكثر من واحدة ، وأن العرف كان ينكر البغاء وبحيث كان الرجل الأعزب أو الفتاة بدون زوج بعد هذا كله يبدوا أمراً شاذاً جداً وأيضاً **على الرغم من أن الشريعة جعلت حد الزاني المتزوج قاسياً** فقضت أن يرجم حتى يموت .على أن **الشارع شدد** في إثبات تهمة الزنا إلى حد لا يمكن معه الحكم بهذه العقوبة " .

وملحوظاتي على هذه الفقرة من كلام متز هي :

* إن الأخلاق الإسلامية لا تؤخذ عن المفكرين الاجتماعيين ، فللإسلام مصادره الثابتة، وتوجهاته الواضحة التي لا يغيرها الزمان أو المكان ، أو جهل الجهلاء بها ؛ لأنها صادرة من لدن حكيم خبير(**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**) ؟ (سورة الملك : آية ١٤) .

* إذا كان البغاء في نظر متز يعد نظاماً ، فالإسلام لا يعده كذلك، وإذا كان هذا النظام له أصل في المعتقدات القديمة مثله مثل الخصاء ، فالإسلام يحرمهما، والشريعة الإسلامية وضعت حداً لذلك . ولا يُلزمنا "متز" بضرورة وجود نظام

(٢٩) هذه الصياغة معدلة في الطبعة الرابعة عن مثيلتها في الطبعة الأولى ، فقد كانت صياغة الطبعة الأولى : " أما عادة البناء ، فليس مما يستعفي به العزاب عن الزواج – كما يرى المفكرون الاجتماعيون ....." ، ولا أدري من الذي قام بهذا التعديل ، أهو أبو ريدة نفسه ؟ أم الذي وضع فهارس الكتاب في الطبعة الرابعة ؟! فإن كان أبو ريدة فهذا يدل على محاولة التعديل ، ويؤكد ما قاله عبد الرحمن بدوي من وجود خلل في الترجمة ، وإن كان من واضع الفهارس للطبقة الرابعة ، فهذا يدل على عدم الأمانة العلمية ، وقد لاحظت خللاً أكد (ص ١٦٦) حيث ورد في الطبعة الأولى اسم الشاعر (أبو نواس) وفي الطبعة الرابعة اسم " أبو فراس " ، وهذا خلل كبير جداً

للبغاء في الإسلام، بحجة أن لــه أصلاً في الديانات القديمة،ثم :ما هي هذه الديانات القديمــة الــتي جعلت البغاء نظاماً؟ أهي ديانات سماوية؟ أم ديانات أرضية؟ أم هو مجرد حكم لا أساس لــه، يريد به متز أن يضفي على الموضوع هذا صفة القداسة أيضاً ؟!! .

* إن متـــز لم يذكر صفة الشريعة حين قال (ص ١٧٣) : " على الرغم من أن الـــشريعة جعلت حد الزاني المتزوج قاسياً " ، فلم يقل الشريعة الإسلامية ، هل هـــذا الحاجـــة في نفسه ؟! بل ليته اكتفى بذلك ، وإنما وصف حد الزنا للمحصن بالقـــسوة ، وهو كلام مجترئ على الإسلام، وهو اتهام في غير موضعه، والدليل من كلامـــه هو حين قال (ص ١٧٣) : " على أن **الشارع شدد** – مع تحفظنا لهذا اللفظ – في إثبات تهمة الزنا إلى حد لا يمكن معه الحكم بهذه العقوبة " . فالإسلام يحذر من العقوبة ويضع الحد المناسب لكل جريمة تقع ، حفاظاً على طهارة المجتمع ونقائـــه ، وحرصاً على النفس البشرية من ارتكاب ما هو شنيع أو مخالف للفطرة المستقيمة ، لكن الذين اعتادوا على تبلد المشاعر ، وتفكك الروابط ، والوقوع في الآثـــام يـــرون المحافظـــة على نقاء المجتمع ، ووحدته وترابطه ، يرون ذلك تشدداً وقسوة !! فماذا عسانا نقول لهم ؟ !!! .

* وإذا وقفنا مع وصف متز للشريعة بالقسوة في حد الرجم نقول: كان ينبغي أن يستنبط متز بنفسه نتيجة لذلك وهي أن القيود التي وضعت لإثبات التهمة قيود تتناسب وطبيعة الجريمة والعقوبة كذلك .

* وجدير بالذكر أن المترجم لم ينبه على ما أطلقه متز من حكم على الشريعة الإســـلامية، وهـــو أمـــر مستغرب من مترجم مسلم، نحسبه على علم بمثل هذه الغمزات التي تسيء إلى الإسلام .

وينبغي أن نذكر هنا ما علق به المترجم على قول متز "نظام ديني غريب" ، فقال في الهامش (ص ١٧٣ هامش ٣) : " لا أدري ماذا يقصد المؤلف ، ولعله يشير إلى نظم دينية قديمة فاسدة ".

واستطرد متز بعد ذلك قائلاً (ص ١٧٣ ، ١٧٤):" وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالي عام ٣٠٠هـ - ٩١٠م حال البغاء في الصين ، وتكلم عن الزواني ، وهن يثبتن في ديوان خاص بهن يسمى ديوان الزواني ، وعليهن في كل سنة ضريبة يؤدينها لبيت المال ، ثم قال : ونحن نحمد الله على ما طهرنا من هذه الفتن " .

هذا ما نقل عن الصين وهو مجتمع غير إسلامي ، ثم يليه تعليق يؤكد طهارة المجتمع الإسلامي من هذه الفتن ، وهو في ظاهره كلام منصف ، لكن لماذا هذه المقابلة بين مجتمع المسلمين ومجتمع الصين بالذات؟ يتضح ذلك من استكمال متز لكلامه ، حيث قال (ص ١٧٤): "ولكن لم تمض على ذلك خمسون سنة حتى بلغ من إهمال عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢هـ - ٩٨٢م للشريعة أنه فرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة ، وكان يضمن هذه الضريبة . (يقول البيروني بعد حكاية ما كان عليه ملوك الهند من فرض الضريبة على المغنيات والراقصات طلباً للمال : وهكذا كان عضد الدولة) وأضاف إليه حماية الرعية من عزاب الجند " .

وفي جملة اعتراضية انتقل متز من عضد الدولة العباسي إلى الفاطميين ، فقال (ص ١٧٣) : " وقد أخذ الفاطميون بهذا النظام ففرضوا الرسوم على بيوت الفواحش " ، ثم عاد ليقول (ص ١٧٤) ليقول : " وفي حكاية اخترعت حوالي آخر القرن الرابع الهجري أن عضد الدولة خطب الأميرة جميلة الحمدانية ، فامتنعت عليه ، فلما أسرها استولى على جميع أموالها ، وقيل : إنه فرض عليها مالاً، وألزمها

إما أن تؤديه أو تختلف إلى دار القحاب لتكتسب ما تؤديه ، حتى إذا ضاق بها الأمر انتهزت غفلة الموكلين بها ، وغرقت نفسها في دجلة " .

إن مـــا قالـــه متز عن عضد الدولة لمن الأمور المستغربة ، فقد جاء في كتاب سياست نامه عن عضد الدولةأنه" لم يكن من بين ملوك الديالمة من هوأعظم وأكثر يقظـــة وأبعـــد نظـــراً من عضد الدولة إذ كان سياسياً عالي الهمة محباً للإصلاح والعمران" .

فـــأين هذا من رجل يفرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة ؟ بل أين كلام متز من عضد الدولة الذي كان صاحب الانتصارات العظيمة، والإصلاحات الداخلية الرائعة ، والاهتمام بالعلم وأهله ؟ ولماذا لم يذكر "متز" اسم عضد الدولة، وهـــو " ألـــب أرسلان "؟ والجواب ميسور ؛ وهو أن اسم ألب أرسلان مشهور ومرتبط بمعركة فلا ذكر وهو ما لا يريد " متز " التنويه عليه ؛ لأنه سينسف فكرته نفساً .

إن متـــز حاول نفي التهمة عن عضد الدولة بقوله "وفي حكاية مخترعة"، لكن الأمـــر الملفـــت للانتباه أن هذه القصة تشير– إن صحت– إلى عفة المرأة المسلمة وطهارتهـــا، لدرجة أنها لم ترض أن تدنس شرفها وإن أدى بها إلى أن تقتل نفسها خـــوف العـــار ، وغريب أن يفكر عضد الدولة في خطبة جميلة الحمدانية ، فلما تصبح سبية عنده يطالبها بالبغاء ؟ فهذه لا تعقل عن شخصية كهذه .

ولا يفـــتأ متـــز يتتبع العورات ، فمن ذلك قوله (ص ١٧٤، ١٧٥): " ومما اختصت مدينة اللاذقية (٣٠) أن المحتسب فيها كان يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفـــساد مـــن الروم في حلقة وينادي على كل واحدة منهن، ويتزايد الفسقة فيهن لليلة ، ثم يؤخذن إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتمـــاً يسنمى خاتم المطران ؛ ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها ، وإن وجد

---

(٣٠) اللاذقية – مدينة من ثغور الشام الساحلية . معجم ما استعجم جـــ ٤ ص ١١٤٧ .

خاطــئ مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب ، على أن هذا النظام لم يذكر بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الروم".

ولا تعلـــيق بعـــد تعليق متز نفسه : " على أن هذا النظام لم يذكر إلا بعد أن عـــادت مديـــنة اللاذقية إلى حكم الروم "، ولكن لماذا أقحم هذا الموضوع هنا ما دامت صلته بالمجتمع الإسلامي مقطوعة ؟ ربما يقصد متز التأكيد على صفاء المجتمع الإسلامي ونقائه ، وبضدها تتميز الأشياء !!

وهـــذا الـــنص الـــسابق جاء في معجم البلدان بهذا اللفظ : "قال ابن فضلان واللاذقية مدينة قديمة سميت باسم بانيها ورأيت بها في سنة ٤٤٦هـــ أعجوبة وذلك أن المحتسب يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي على كل واحد منهم ويزايدون عليها إلى دراهم ينتهون إليها ليلتها عليه ويأخذونهم إلى الفـــنادق الـــتي يسكنها الغرباء بعد أن يأخذ كل واحد منهم من المحتسب خاتم المطران حجة معه ويعقب الوالي له فإنه متى وجد إنساناً مع خاطئة وليس معه خاتم المطران ألزم خيانة " .

وواضـــح من النص الذي نقله متز أن ابن فضلان هو الذي ذكر أنه رأى في مديـــنة اللاذقـــية هذا الفعل وعدة من العجائب، ويلاحظ أن مدينة اللاذقية كان أغلـــب ســـكانها من نصارى الروم، وكانت إحدى ثغور إنطاكية التي كان الروم يسيطرون عليها حتى القرن الخامس الهجري .

ثم انـــتقل متز إلى إصدار الأحكام الجزافية ، فقال (ص ١٧٥) : "وفي عام ٣٢٣ هـــــ - ٩٣٤ م قام الحنابلة ، وهم **المسلمون المتطرفون** ، لمطاردة المنكر في بغـــداد ، وعظم أمرهم وقويت شوكتهم حتى صاروا يكبسون دور القواد والعامة، فإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، وصاروا يعترضـــون في البـــيع والشراء ، وفي مشي الرجال مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا

ذلك سألوا الرجل عن الذي معه من هو فأخبرهم ، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة ، حتى أرهجوا بغداد " .

هذه حادثة نقلها ابن الأثير ، وعلى الرغم من اتهام الحنابلة بالتطرف، وهو مصطلح لاكه المستشرقون وأهل السياسة ممن يحاربون أهل الإسلام ، فإن هذه الأمور حدثت في دار الخلافة في بغداد ، ولم تتعداها إلى ما سواها ، هذا على افتراض صحة ذلك الخبر " . وإذا نظرنا إلى نص الخبر كما أورده ابن الأثير سنجده بدأ بقوله : " : ذكر فتنة الحنابلة ببغداد ، وفيها عظم أمر الحنابلة ،وقويت شوكتهم ، وصاروا يكبسون من دور القواد والعامة وإن وجدوا نبيذاً أراقوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ..."

وجدير بالملاحظة أن النص الذي أورده ابن الأثير جاء في آخره إرسال رسالة شديدة اللهجة من الخليفة إلى هؤلاء الحنابلة ، ينكر عليهم فيها فعلهم . ولم يذكر متز شيئاً من ذلك مكتفياً بعرض الجانب السلبي ، وتاركاً موقف الخليفة منه ؛لأنه موقف محمود من إمام المسلمين وخليفتهم .

وواضح أن ابن الأثير لم يذكر جملة " **المسلمون المتطرفون** " فهي من قول متز الذي ترجمه أبو ريدة ، وأما قول متز " لمطاردة المنكر " فهي مندوحة للحنابلة وليست مذمّة ، ولا يوصم الذي يطارد المنكر بالتطرف إلا عند شُذاذ العقول ، عُمى القلوب ، ضِعاف الفهم ، جهال بحقيقة الدين ، مرضى النفوس .

ويعلل متز قوله مستنداً برأي الماوردي ، فقال (ص ١٧٥) : " على أن الماوردي يقول : إن المحتسب إذا رأى وقفة رجل مع امرأة في طريق سابل لم تظهر منهما أمارات الريب لم يعترض عليهما بزجر ولا إنكار ، فما يجد الناس بداً من هذا ، وإن كانت الوقفة في طريق خال فخلو المكان ريبة ، فينكرها ولا يعجل بالتأديب عليها حذراً من أن تكون ذات محرم ، وليقل : إن كانت ذات محرم

فصنها عن مواقف الريب ، وإن كانت أجنبية فخف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى" .

إن المـــاوردي يشير من خلال كلامه إلى قضية مهمة جداً ، وهي مسألة سد الذرائع والبعد عن الشبهات ، وهذه المسألة في الفقه الإسلامي قد لا يعرفها متز ، أو ربما لا يدرك معناها ، باعتبارها من مبادئ الإسلام الأصيلة التي دعا إليها القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

وقال متز (ص ١٧٦) : " على أن العادة المستحسنة في نظر الشرع هي أن يَقرّ النساء في بيوتهن ، ولا تحمد لهن كثرة الخروج " .

وهـــذا الكلام غير دقيق ، لأن الإسلام يحترم المرأة ويضعها في مكانها اللائق بهـــا والمناسب لفطرتها ، فإن القرار في المترل يحافظ على عفتها وطهارتها والخروج يكـــون لضرورة ، وإن كثر . لأن العبرة هي تكريم المرأة وليس احتكار تصرفاتها ، وفـــضلاً عـــن ذلك فإن أمر الله تعالى لا يقبل الاعتراض ، وهذا من صميم عقيدة الإسلام ، فإن قال الله تعالى:﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (الأحزاب: من الآية٣٣) وجب على المسلمة تنفيذ الأمر طاعة لله تعالى ، فهو ليس (عـــادة مستحسنة) بل يعد واجبا شرعيا أمر به رب العالمين سبحانه ، ومع ذلك فـــإن كتب السنة تفضصل القول في موضوع خروج النساء ، وتاريخنا الإسلامي حافل بنماذج من المسلمات كن يشاركن في ساحة القتال .

ثم يحـــاول متز تمييع مفاهيم الإسلام ، فيقول (ص ١٧٦) : " وبعد أن كانـــت عـــادة استقرار النساء في البيوت أدباً شرعياً صارت عادة بين الأشراف والكبراء حتى في أسبانيا " .

فهـــو يرى أن استقرار النساء في البيوت تحول من أدب شرعي إلى عادة خاصـــة بالأشراف والكبراء فقط ، وهذا يعني أن بقية أفراد المجتمع قد خرجوا إلى الشوارع ، واختلط الحابل بالنابل ، وهذا ما لا يقره عقل ، كما أن متز لم يذهب

إلى الشوارع في العالم الإسلامي آنذاك ويرى مخالفة العامة لعادة استقرار النساء في البيوت .

ثم يـــنقل متز عن مستشرق مثله ، وهو "استندبال "قوله: "وبتأثير الأسبان كانـــت لا تـــرى امرأة قط في شوارع إيطاليا حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي " .

وهـــذا أمر يحمد للمسلمين،حيث بلغ أثرهم إلى إيطاليا في منتصف القرن الـــسابع عشر الميلادي ، وهذا الكلام يؤكد تناقض حكم متز ، وعدم قدرته على إعطاء تصور صحيح لمجتمع المسلمين في القرن الرابع الهجري أو غيره .

ثم تكلـــم متز عن بعض النساء العالمات اللائي يقبل الناس على دروسهن مـــثل : أم الواحد ، وأم الفتح ، و أوجز الكلام عنهم ، وقد أخطأ فسمى الأولى " أم الـــواحد " والحقيقة هي " أمة الواحد " والفرق بين الاثنين كبير، ولعله خطأ في الترجمة ، إذا أحسنا الظن في نية " متز " ، لأن السم الأول يعني جعل لفظ الجلالة منتـــسبًا لأم وهي عقيدة عند منحرفي النصرانية. وكان ينبغي على متز ، أن يذكر الجانب المشرق للمرأة في الشرق ، مثلما تكلم عن سوء أخلاق بعض نساء الشرق، فقد نسى أو تناسى إحدى المحدثات الشرقيات [٣١] وهي جمعة بنت أحمد بن محمد بن عبيد الله المحمية ، من أهل نيسابور ، قدمت بغداد ، وحدثت بها عن أبي عمرو بن حمدان ، وأبي أحمد الحافظ ، وغيرهما . قال الخطيب البغدادي : " حدثني عنها أبـــو محمـــد الخـــلال ، وعبد العزيز بن علي الأزجي، وأبو الحسن محمد بن محمد الشروطي " .

حادي عشر : إلقاء الأحكام الجزافية :

لقـــد نظر " متز " إلى المجتمع الإسلامي الذي كرَّم المرأة ، وصان عرضها من أن يدنسه الأجانب على أنه انفصال بين النساء والرجال ، ولهذا الانفصال عواقب

(٣١) وراجع عناية النساء بالحديث النبوي ص ٤٩ .

اجتماعية وخيمة ، فقد كان سبباً في ظهور " فحش القول " —كما يرى متز ، ثم أخـــذ يـــوهم القارئ بأنه لو قارن بين قصص العرب في عصرهم الأول (يقصد الجاهلي) ، وما كان في هذا العصر من نوادر وكلام وشعر ، بما في القرنين الثالث والـــرابع للهجرة، لكانت الدهشة كبيرة ، حيث ستكون النتيجة أن هذين القرنين ظهر فيهما الميل الشديد إلى (الإفحاش في القول) .

وهذا الكلام غير صحيح البتة ، فشعر امرئ القيس ، وطرفة بن العبد ، ولبيد، وغيرهم يحمل من معاني الفحش الشيء الكثير، لكن " متز " الذي لا يعرف العربية يـــريد وصم القرن الرابع كله بفحش القول ، لمجرد أن شاعراً أو اثنين أو أكثر كان في شعرهما " فحش " ، ونسي أو تناسى أخلاق علماء المسلمين في هذا القرن .

ثم أراد أن يعـــتذر لوجـــود هذه العادة في ذلك القرن ، فقال (ص ١٨١ ، ١٨٢) : " وليس هذا أيضاً شأنه شأن غيره — إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التي كانت قبل الإسلام ، سيطرة عادت لها من جديد، ولا يزال البدوي إلى اليوم أعف وأطهر من غيره ".

وعلى الرغم من أن الكلام يحمل اعتذاراً واضحاً لسبب وجود ظاهرة " فحش القـــول " في ذلك القرن إلا أنه يحمل في طياته مدى تأثير الشرق والعادات الشرقية على العرب قبل الإسلام وبعده ، وهو ما لا يتفق والواقع ، فالعربي قبل الإسلام لم يتأثـــر بتلك الدرجة التي يصفها " متز " كما أن المسلمين في القرن الرابع الهجري وقـــبله لم تصل درجة تأثرهم إلى حد استقطاب عادات سيئة كثيرة من غيرهم من الأمم .

لقـــد بدأ متز بتعميم الحكم على القرن الرابع الهجري كله ، بل وصله بالقرن الـــذي قبله واصماً هذين القرنين بالفحش في القول عند الرجال، ثم وجد نفسه قد وقع في تناقص كبير ، فاعتذر بسيطرة العادات الشرقية ، ولم تسعفه هذه الكلمة " العـــادات الـــشرقية "،فاضطر إلى الاعتراف بأنه " لا يزال البدوي إلى اليوم أعف

وأطهـــر مـــن غيره " (ص ١٨٢)، فمن غيره الذي يقصد؟! لا شك أنه يقصد المجتمع الذي يعيش فيه متز .

ولما أعيت متز الحيلة ، ووجد أن حجم التنازلات عن حكمه العام الجائر على القـــرن الـــرابع الهجري قد تزايد ، اضطر إلى حصر نفسه في موضوع محدد وهو الـــشعر ، ثم وجد أنه لو وصم الشعر كله بفحش القول يكون قد وقع في تناقض شـــديد آخر ، فاضطر إلى تحديد نوع واحد فقط من الشعر وهو " شعر الهجاء " فقـــال (ص ١٨٢) : " وقد سيطرت على شعر الهجاء بنوع خاص من الألفاظ البذيـــئة المـــستمدة مـــن المجون المتصل بالمسائل الجنسية ". وساق متز مجموعة من الأحـــداث الفـــردية ، والـــبذاءات اللفظية لبعض الشعراء في شعرهم الهجائي ، ونتـــساءل : هل يعتقد متز أن الهجاء لا ينبغي أن يكون لاذعاً ؟!، أو ربما نزل إلى الحـــضيض والإسفاف في القول؟!، ألا يكفي أنه هجاء ؟! . وغني عن التعريف أن الإســـلام يحذر من السخرية والهجاء والسب ، قال تعالى :)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَـــسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الحجرات:١١) .

ولـــست أبـــرئ شعر الهجاء من فحش القول ، ولكني أبرئ القرن الرابع الهجري من تلك التهمة

وإذا كـــان الطـــبع السليم يأبى فحش القول ، فإن متز يعترف بنفسه أن القـــرن الـــرابع الهجـــري كان يضيق بهذا الخلق ، فالحكاية التي ساقها عن الوزير ســـليمان بن الحسن سنة ٣١٩ هـــ من أنه كان يظهر من سخف الكلام ويضرب الأمـــثلة المـــضحكة ، و يظهر القول القبيح بين يدي الخليفة، " فاستنقصه الخلق ، وهجاه الشعراء ، واستعظموا الوزارة لمثله " (ص ١٨٢) . إنه اعتراف صريح بأن (الخَلق) في القرن الرابع الهجري قد استنقصوا هذا الفعل من وزير ، واستعظموه.

وهـــذا يـــدل علـــى حسن الطبع عند العامة ، وأنهم يميزون بين الحسن والقبيح ، ويلفظون (فحش القول)، ولو كان على لسان وزير .

وفي كلامه عن حب المال أكد متز أن هذه العادة قد ظهرت من جديد ، وأصـــبح للمال قوة هائلة تفوق كل القوى ، وتعلو كل قيمة ، " وكل شيء صار يعـــرض مـــن أجل المال ، وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة " (ص ١٨٤) .

أمـــا حـــب المال ، فيبدو أن " متز " لا يعرف أنها غريزة بشرية و أن الله ســبحانه وتعـــالى قد ذكر في كتابه العزيز قوله (**وتحبون المال حباً جما**) (سورة الفجر) ، أما الاحتيال للوصول إلى المال فقد نهى عنه الإسلام قال تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حـــوباً كبيراً)(سورة النساء آية ٢) وقال :(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) (سورة النساء آية ١٠) .

وحكـــى متز تلاعب الخليفة العباسي القاهر من أجل الحصول على المال حـــيث أمر " بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة ، وأمر ببيع الجواري المغنيات ، علـــى أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ، ثم وضع من يشتري لـــه كل حاذقة في صنعة الغـــناء ، فاشـــتري منهن مـــا أراد بأرخص الأثمان ، وكان القاهر مولعاً بالغناء والـــسماع ، فجعل ذلك طريقاً إلى تحصيل غرضه رخيصاً " . (ص ١٨٤) . ثم حكـــى متز حكاية أخرى عن طمع الأخشيد ، واستيلائه على الأموال وإذا كان " ميتـــز " لا يحب المـــال ، فإن في طبعه خلل، لكنه تجدر الإشارة هنا إلى أن المسلم يتـــصف بالاتـــزان في تـــصرفه في المال ، فهو أولاً يأخذه من حلال ، ويصرفه في الحلال بلا تبذير ولا تقتير ؛ لأنه يعلم أن الإسلام لا يقّر التبذير ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُـــبَذِّرِينَ كَانُـــوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (الإسراء:٢٧)،

ويعلـــم كذلك أن الشح ممقوت ، قال تعالى ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (الإسراء:٢٩) .

وتكلم متز عن قلة شعور الإنسان العربي بكرامته مما يسهل عليه اضطهاد الآخرين لـــه ، واستدل على ذلك بموقف أحمد بن طولون من ابنه العباس ، الذي كان قد خرج عليه .

والقـــصة – أولاً – في القرن الثالث الهجري ، فضلاً عن أنها لا تشير إلى ضعف الكرامة العربية ، وإنما تشير إلى تأديب أحمد بن طولون لابنه ، وإلزامه بقتل مـــن كانـــوا ينصرونه بنفسه ؛ ليدرك أنه ما كان ينبغي عليه أن يخرج على أبيه ، ويسعى لشق عصا الطاعة .

والقـــصة الثانية التي أشار إليها متز كانت عن المحسن بن الفرات ، وإذلاله للوزيـــر الـــسابق لأبـــيه وهو (حامد بن العباس) حيث كان يلبسه جلد قرد ، ويرقصه ، ويصفعه ، ..... إلخ .

ولـــست أبرر هذا الفعل ولكنني أقول : هذه حادثة فردية تدل عَلى سوء أدب ، وقلة حياء من ذلك الذي استخدم سلطة أبيه للانتقام من وزير سابق ، وهو أمر يحدث في عالمنا كثيراً ، ولا يدل بحال على ضعف الكرامة العربية ، فمن الخطأ أن نـــرى ســـلوكاً غير سويّ لفرد ، ثم نسحب الحكم على هذا السلوك أو على صـــاحبه إلى المجتمع كله ، فنصف هذا المجتمع بضياع الكرامة العربية ، ولا أدري هل كلمة " الكرامة العربية " التي ترجمها أبو ريدة هي ما قصده " متز " أم لا ؟ ، فإن كان الأمر على هذا النحو ، فإن المؤلف مخطئ ؛ لتعميمه الأحكام ، والمترجم مخطئ كذلك ، لعدم التنويه على هذا الكلام ، وإن كانت الترجمة خطأ ، فالخطأ أغلبه يقع على المترجم .

ولقـــد حاول "متز " أن يرجع إلى عصر النبوة ، فذكر مثالاً يوضح كيف كان النبي ﷺ مثالاً للمحافظة على كرامة العربي، فذكر ما جرى في غزوة بدر حين

كـــان الـــنبي ﷺ يعدّل الصفوف فمر بسواد بن غزية ، وهو مستنصل من الصف فطعـــنه بالقـــدح ، وقال : (استو يا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعـــثك الله بالحق والعدل فأقدني ، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، فاعتنقه سواد وقـــبل بطنه ويعلق متز على ذلك بقوله (ص ١٨٧) : " هذا مثال لشعور العربي الأول بكرامته " .

والحق أن الأمر أكبر من ذلك ، فالحادثة تدل على عدل النبي ﷺ ورحمته ، وتواضـــعه ، وضبطه للأمور ، وحسن قيادته ، كما تدل على مدى حب الصحابة ﷺ للرســـول ﷺ . ومع كل هذا فإن الموضوع مرتبط بعصر النبوة ، وليس بالقرن الرابع الهجري .

وأما الحكاية عن أبي محمد المهلبي الذي كان يهان ويضرب ثم يقبل الوزارة بعـــد ذلـــك ، فهـــي في القرن الرابع الهجري ، لكننا لا ندري هل هذه عادة من عادات هذا القرن أم خلق من أخلاق الناس فيه ، وهي حادثة وحيدة ؟!.

ولما لم يجد " متز " سوى حادثة المهلبي للتدليل على ضعف الكرامة العربية في القرن الرابع الهجري لجأ للكلام عن القرن الخامس الهجري .

وحـــين تحدث متز عن التعذيب في السجون تطرق إلى موضوع العقوبات التي كانت تستخدم ضد المتمردين ، ومنها : " إحراق الجثث " ؛ وعلق على ذلك في الهامش ، بقوله (ص ١٩٣ هامش ٤) : " هذا هو الحال، وكذلك كان قديما . انظر مثلاً ما اشترطه أبو بكر على وفد المرتدين لما قَدِم عليه ، وهو أنه " خيَّرهم بين الحرب المجلية ، أو السلم المخزية ، فقالوا : قد عرفنا الحرب المجلية ، فما السلم المخـــزية ؟ قال : أن نترع منكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا منكم ، وتَدفنوُا قـــتلانا ، ويكون قتلاكم في النار " . وكان قواد المسلمين في ذلك العصر يحرقون المرتدين حقيقة (انظر فتوح البلدان طبعة ليدن ١٨٦٦ ص ٩٤ ، ٩٨) . وكذلك كان إلغاء الدية عند اليونان مرتبطاً بظهور عادة إحراق الأجساد عندهم " .

أما قوله هذا هو الحال اليوم ، فإن متز صادق في ذلك ؛ لأنه يحكي واقعاً حسياً في مجتمعه ، أما مفهومه أن هذه العقوبة (إحراق الجثة) كانت في عهد أبي بكر الصديق ﷺ مستدلاً على ذلك بقوله " ويكون قتلاكم في النار " أنهم يحرقون ، وأكد ذلك بقول البلاذري أنه " كان قواد المسلمين في ذلك العصر يحرقون المرتدين حقيقة"، فأما كلام البلاذري فلا دليل عليه ، وأما ما فهمه متز من كلام أبي بكر ﷺ فهو فهم خاطئ ، فالصديق ﷺ يريد التأكيد على أن المرتدين كفرة ، وبالتالي فهم في نار جهنم خالدين فيها فهذا حكم الله (**والذين كفروا إلى جهنم يحشرون**) .

وإذا كان المجتمع الغربي يعرف الانتحار منذ فترة طويلة لعدم وجود وازع ديني يحكمه ، فقد استغرب متز ألا يجد ذلك في المسلمين ، فقال : " لم يبلغنا منه – يعني من الانتحار – إلا مثالان في ذلك العصر "

هذا النص يوهم بأن المؤلف يتقصى ما يتعلق بالعصر (القرن الرابع الهجري) ، والحق أنه لم يجد عبر تاريخ المسلمين سوى حالتين فقط مما جعله يُضطر إلى استخدام أسلوب القصر ، مع محاولة الاستنكار أن لا يجد سوى هاتين الحالتين ، وكأنه يريد القول : إن حالات ربما تكون قد حدثت لكنها لم تبلغني ، ويبدو أنه يستغرب أن يكون المجتمع الإسلامي بريئاً من حالات الانتحار ، وهذا راجع إلى ما لاحظه في مجتمعه هو من كثرة هذه الحالات بحيث أصبحت ظاهرة ، فأراد أن يخلعها على مجتمع المسلمين إلا أنه لم يجد لها أثراً .

وذكر " متز " كلاما أقل ما يوصف به أنه (ساقط) ، ولا يمثل ظاهرة في مجتمع المسلمين ، لأنه منقول عن فرد واحد ، وليس سلوكا لهذا الفرد ، بل هو كلام صيغ في قالب شعري ، وهو مجموعة أبيات للمعتز ، واستدل بها متز على فكرة تمادي العشاق ؛ مما يؤكد افتقاره إلى المادة العلمية ، وعدم القدرة على

الإتيان بدليل واضح يصم به المجتمع المسلم بالمجون، لذلك يسرع بالقول : إن موضوع تمادي العشاق كان " من عادات الرومان أيضاً " .

ولا ندري ما صلة المجتمع المسلم بعادات الرومان ؟ هل تأثر المسلمون بهذه العادات الرومانية ، فظهرت عندهم ؟! وهل يمثل تمادي العشاق ظاهرة اجتماعية تستحق الدراسة أو التنويه عليها ضمن أخلاق القرن الرابع الهجري وعاداته ؟! .

ثاني عشر : الاجتراء على رسول الله ﷺ :

إن العطف على اليتيم من مبادئ الإسلام الأصيلة ، فقد أمر الله تعالى بذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾(الضحى:٩) . وقوله: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾(النساء:٢).

والرسول ﷺ قال : " أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وجمع بين أصبعيه " لكن متز قال (ص ٢٠٥) : "ونظراً لأن النبي عليه السلام ، كان يتيماً ، فقد صار المسلمون يعطفون على اليتامى عطفاً خاصاً، وإن لم يجمعوا في بيوت أُعِدَّتْ لهم؛ففي أصفهان مثلاً كان أحد الصالحين يذهب بالأيتام يوم الجمعة إلى منزله، ويدهن رءوسهم .

وهذا الكلام يحمل في طياته غمز النبي ﷺ ، فضلاً عن عدم صحة ما يقوله " متز "، فالمسلمون لم يعطفوا على اليتيم لأن نبيهم ﷺ كان يتيماً ، بل لأن الله عز وجلّ أمرهم بذلك ، ولأنه ﷺ أمرهم بذلك أيضاً ، وواضح أن "متز " لا يعرف شيئاً عن الإسلام ، فهو لا يعرف أن **الرسول** ﷺ على الرغم من يتمه فقد كان في رعاية الله ، ونشأ صالحاً صادقاً أميناً، ولكنه ﷺ دعا إلى العطف على اليتيم لأنه اليتيم أضعف الناس ، فهو مهيض الجناح ، لعدم وجود نصير له في الدنيا بعد فقد والده ، فهي دعوة إلى تماسك أفراد المجتمع ، وعدم نبذ أحد منهم ، وهذا من أنبل المعالي في العلاقات الإنسانية ، حين لا يجد اليتيم نفسه غريبا بين الناس ، بل

يـــشعر بأنه محفوف بالرعاية والعناية ، فلا يجتمع عليه ألم فراق والده ، وألم مفارقة المجتمع له ، ونبذه إياه .

ثالث عشر : المدح في غير موضعه وإنكار الحق :

قـــال متـــز (ص ٢٠٥) : " إن أول من بنى داراً للمرضى في الإسلام الولـــيد بن عبد الملك " وهذا كلام فيه نظر، إذ كانت هناك دور متنقلة للجرحى في المعـــارك منذ عصر النبوة ،مثل خيمة رفيدة ، وغيرها ثم انتقل إلى القول : " ثم جـــاء البرامكة ، وكانوا بعيدين عن الإيمان كل البعد، فأسسوا بيمارستانا أسندوا رياسته لطبيب هندي " .

والـــسؤال هنا : ما صلة البعد عن الإيمان بتأسيس المارستان ؟ ، ثم إن هذا الكلام في القرن الثاني الهجري .

ثم انـــتقل متـــز إلى الكـــلام في القرن الثالث الهجري فأطال الكلام عن المستشفيات التي نشأت فيه،ثم انتقل أخيراً إلى القرن الرابع الهجري، ويلاحظ على كلام متز في هذا القرن ما يلي:

– تـــدرج " متز " من الكلام عن اهتمام الخلفاء في القرن الرابع الهجري ببناء المستشفيات والنفقة عليها من مالهم الخاص إلى الكلام عن الوزراء واهتمامهم ببـــناء المستـــشفيات وأعمـــال البر ، ثم انتقل إلى الحديث عن كبار رجال الدولة واهتمامهم بالمستشفيات وأعمال البر أيضاً ، وقد بدأ كلامه بالتركيز على (**فضل**) طبيبٍ غير مسلم هو "سنان بن ثابت " الذي كان يشرف على خمس مستشفيات في بغداد وحدها ، و**بفضل** عبقريته ومهارته وإشارته فتح الخليفة المقتدر مستشفيان آخران كان ينفق عليهما من ماله الخاص .

إن اهـــتمام الخلفـــاء والوزراء وكبار رجال الدولة ببناء المستشفيات يعد مـــندوحةً لهـــم ، ومع هذا لم نجد متز يشير إلى مدح عمل هؤلاء ، وإنما يشير إلى **فضل** طبيب غير مسلم في تحريك الخلفاء والقادة لبناء المستشفيات وأعمال الخير ،

أفلايدل هذاعلى سعة صدر المسلمين وسماحتهم وإدراكهم أن الحكمة ضالة المؤمن، فــإذا وجدها فهو أحق الناس بها ؟! ، إن احترام رعايا الدولة ووضعهم في مكانهم اللائق بهم أمر يقره المجتمع الإسلامي ، الذي لا يعرف التعصب الديني ، فالإنسان بعمله وجهده ، ولكل مجتهدٍ نصيب . ولعل هذا مما لم يدركه فكر ذلك المستشرق الألماني !! .

- ثم تكلم متز عن أمر الخليفة " المقتدر " للطبيب غير المســلم "سنان بن ثابــت " بامتحان الأطباء قبل ممارستهم لمهنة الطب ، وبين أن السبب في ذلك هو مــا بلــغ الخلــيفة من أن طبيباً أخطأ في معالجة رجلٍ ، مما أدى إلى وفاته ، فأمر بامــتحان الأطــباء ، لكن متز تعجب من طريقة اختبار سنان بن ثابت للأطباء ، حيث إنه كان يقول عندما يجلس إليه الممتحن : " قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً أحفظه عنه ، وأن يذكر شيخه في الصناعة " .

وهــذا الكلام يؤكد اهتمام الخليفة المقتدر بمصالح الناس أولا ، كما يشير إلى مــدى احترام مهنة الطب ، فلا يمارسها إلا من كان ذا خبرةٍ عالية ، وكفاءة خاصــة ، فرعاية مصالح العباد من أخص خصوصيات أعمال الخلفاء ، لأن حقيقة عملــه هي (حراسة الدين وسياسة الدنيا) ومن السياسة الإسلامية الحكيمة حفظ النفس ؛ باعتبارها واحدة من الضرورات الشرعية التي ينبغي على الخليفة مراعاتها .

ثم إن طريقة اختبار سنان بن ثابت للأطباء تعد مندوحة في حقه، فهو يريد أن يحــدد الشيخ الذي تعلم على يديه الطبيب الممتحن،كما يريد الإفادة من ذلك، فــرب حامــل فقه إلى من هو أفقه منه،وهذه ميزة تعلمها هذا الطبيب من منهج العلمــاء المــسلمين وهي التواضع،والاستفادة من كل شيء حتى من طلابه وهو يختبرهم.بل هي ميزة للمجتمع الإسلامي ذاته، الذي وثق في هذا الطبيب، وأعطى لــه مــن الصلاحيات ما يجعله يختار الطبيب الحاذق في مهنته، لأن الإسلام يهتم

بصحة الأبدان، ويضع نصب عينيه تحقيق المساواة بين الناس والمحافظة على أبدانهم، وإن كانوا غير مسلمين، وهذا يدل على إنسانية هذا الدين، ورحمة أبنائه وسماحتهم.

- ثم تكلم متز عن بعض المدن الكبرى في الدولة الإسلامية غير بغداد التي كانت بها مستشفيات خاصة وعلق في الهامش (هامش ١ ص ٢٠٨)بقوله: "ويحكى عن بحكم أنه بني في واسط وقت المجاعة دار ضيافة للضعفاء والمساكين...، ولم يصبح بمدينة واسط مستشفى حقيقي إلا في عام ٤١٣ هـ".

أقول : وهل يعيب مدينة واسط عدم وجود مستشفى فيه ؟ ربما لم يكن الأمر يستدعي بناء مستشفى ! ، وربما كان الناس يكتفون بالاتصال بالأطباء والعلاج على أيديهم ، والدليل على هذا أنه لما دعت الحاجة إلى بناء دار ضيافة للضعفاء والمساكين بنيت هذه الدار .

- وكان آخر ما ذكره متز في هذا الفصل هو قوله (ص ٢٠٨): " ولم يصلنا قط في أخبار هذا القرن أن أحد الأطباء كان يعتبر مسئولاً عن مريضه، بحيث يقتل إن مات بين يديه. وفي عام ٣٢٤ هـ- ٩٣٥ م توفي هارون بن المقتدر أخو الخليفة المطيع بالله فحزن عليه واغتم، واكتفى بنفي الطبيب بختيشوع بن يحيى، لأنه اتهم بتعمد الخطأ في علاجه".

ومن العجيب أن المؤلف لم يصله خبر قط في هذا القرن عن قتل أي طبيب إذا أخطأ في علاج مريض ، أو مات المريض بين يديه .فلماذا يذكر هذا الكلام ؟ .

أما نفي الطبيب بختيشوع ، فبسبب اتهامه بتعمد الخطأ في العلاج وهو عقاب عادي ، ومبدأ العقاب على الخطأ تقرر في شريعة الإسلام ، وقد استدل متز نفسه في الفقرة السابقة بواقع حدث في عهد المقتدر، ويبدو أن عدم معرفة "متز" بالعقيدة الإسلامية، ومبادئ الشريعة الغراء جعله يستنكر ألا يعاقب الطبيب إن مات المريض بين يديه، ولم يكن للطبيب دخل في ذلك الموت، فلعل متز لا يعرف أن الموت قدرٌ محتوم، وأنه تعددت الأسباب والموت واحد، إذ ما ذنب

طبيب جاءه مريض في الترع الأخير و لم يستطع إنقاذه فمات؟! أما إذا أخطأ الطبيب في العلاج وأدى ذلك إلى موت المريض فالعقوبة واردة،ولكنها تقدر بقدرها .

وبعد هذه القراءة النقدية لفصل واحد من فصول كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز ، وهو الفصل العشرين عن الأخلاق والعادات ، تأكد للقارئ أن متز ليس منصفاً ، وليس صاحب منهج علمي واضح كما تصور الأستاذ أحمد أمين ، وأن الأخلاق كما كان ينبغي لمتز أن يكتبها تختلف عما كتبه متز تماماً ، وكذلك العادات .

ومن أقرب الأدلة على ما أقول هو أن متز قد اطّلع بلا شك على كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي،بدليل أنه اقتبس منه فقرات عديدة، ومع ذلك لم يلتفت عن عمد أو غير عمد لما ضمنه المقدسي كتابه– على سبيل المثال– من مصطلحات خاصة بالملابس التي كان يرتديها المسلمون في ذلك العصر الذي تعرض له متز ، فقد سجل المقدسي ١١٢ مصطلحاً في الألبسة ووصف الألبسة العربية في القرن الرابع الهجري وصفاً دقيقاً يجمع بين براعة الاستخدام اللغوي والتصوير الفني الذي يظهر صور الثياب العربية في المجتمع الإسلامي حكاماً ومحكومين في عدد كبير من أجزاء الدولة التي زارها المقدسي (٣٢) .

ومن العادات التي لم يتكلم عنها متز مع وجودها في القرن الرابع الهجري عادة (الموائد)،حيث كانت تستخدم فيها الآداب الراقية، والذوقيات الرفيعة، بغير خيلاء ولا تكلف، بل كانت "الموائد العربية أسبق إلى الأناقة" "وما أحسب التمدن الغربي وتطوره إلا مقتبساً من كل ما عرفه الشرق العربي قبله... وعنه أخذ، ومنه

---

(٣٢) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى مقال : الألبسة العربية في القرن الرابع الهجري من خلال أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي بقلم منجية مسية – مجلة المعجمية – تونس – العدد ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ص ١١ – ٣٥ .

اقتـــبس !! وكذلك هي الحال في علومه وفنونه ، وكل ما اختلسه أو اصطنعه من وسائل الأناقة والنظافة والرفاهية والنعيم " .

تصـــــــور مقتـــرح :

وأعتقد أنه إذا أراد أي باحث منصف جاد أن يتعرض لأخلاق مجتمع المسلمين في القرن الرابع الهجري وعاداته أن يتكلم في الموضوعات التالية :

أولاً : **الأخلاق** : ويدور الحديث فيها حول ثلاث محاور هي :

(١) أخـــلاق الخلفاء والأمراء والقادة ، ويكون التركيز على معاني السخاء والورع والشجاعة والعدل والرحمة بالرعية والإحسان إليهم ..

(٢) أخـــلاق العلماء ، وهذا القرن يعج بعلماء أفذاذ لهم أثر كبير في الحياة والمجتمع ، ويكون التركيز على معاني الأمانة ، والتواضع، والعزة، والعفة ، وقول الحق ، والصبر على العلم وطلابه .

(٣) أخلاق العامة ، من التكافل والتراحم ومحبة العلماء ، والتعاون مع الراعي .. ومـــا من شك في أن الإخلاص والتقوى والتواضع والتوبة والتوكل والرضا والزهد والـــصبر والطمأنيـــنة والقـــناعة والـــورع والصدق والحياء والشكر والأمانة والإنفاق والاســـتقامة والخـــوف والـــرجاء والـــرفق والعفو والرحمة والحلم والمروءة والنصيحة والإحسان والعدل ، كلها تعد من الأخلاق التي تحلى بها المسلمون في المجتمع الإسلامي، وإن كـــتب التاريخ والتراجم لتزخر بالعديد من النماذج الراقية — عبر القرون الهجرية المخـــتلفة — نمـــاذج التزمت هذه الأخلاق سلوكا ومنهج حياة ، وحققتها قولا وعملا واعتقاداً .

ثانياً العادات ، مثل : الأطعمة ، والأشربة ، و الألبسة ، و المواكب والأعياد وعـــادات الـــزواج وحفلاته .... إلى غير ذلك من الأمور التي تعد عادات اجتماعية ، وأمـــثلة حية للأخلاق الإسلامية العامة . وأحسب أن الباحث يستطيع جمع شتات هذا الموضوع من كتب الطبقات والتاريخ والتراجم ، فضلا عن كتب السلوك والأخلاق التي تزخر بها المكتبة العربية .

وأخــــــيراً ..

أسأل الله العلي القدير أن أكون قد أديت بعض ما ينبغي أداؤه من خلال هــذه القــراءة الــنقدية لكتاب آدم متز؛ حرصاً على تراثنا الإسلامي الأصيل من الدســائس التي تندس فيه،وإحقاقاً للحق الواجب الصدع به،وأداءً لأمانة العلم التي أكرمني الله تعالى لها.

كمــا أســأله ﷻ أن يكــون قد وفقني إلى عرض مناسب لموضوع الحضارة الإسلامية من حيث الجانب النظري ، وإن كان فيه من قصور ، فأستغفر الله عليه، وآمــل أن أوفــق لاســتكماله ، وأتمنى أن يكون ما عرضته من بعض إسهامات الحضارة الإسلامية في مجال العلوم التجريبية قد أدى الغرض منه .

وأقتــرح أن يكون مقرر الحضارة الإسلامية بكل أنواعه ، وبخاصة الجانب التجــريبي منه ، مقررا على جميع الجامعات المصرية ، تحقيقا لنشر العلم ، ووصلا لماضي هذه الأمة بحاضرها .

والله من وراء القصد وهو يهدي إلى أقوم طريق ، والحمد لله رب العالمين

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

من مراجع الدراسة

أحمد فؤاد باشا : في فقه العلم والحضارة ، سلسلة قضايا إسلامية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عدد ٢٠.

ابن أبي أصيبعة : عيون الألباء في طبقات الأطباء .

ابن أبي جرادة : كمال الدين عمر بن أحمد : بغية الطلب في تاريخ حلب – تحقيق د . سهيل ذكار - ط. الأولى سنة ١٩٨٨م - - دار الفكر – بيروت .

ابن الأثير : أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد (٦٠٦هـ) : جامع الأصول في أحاديث الرسول – تحقيق عبد القادر الأرنؤوط – الطبعة الثانية ١٩٨٣م – دار الفكر – بيروت .

ابن الأثير : محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ - تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي – ط. الثانية سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م . دار الكتب العلمية بيروت

ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧ هـ) .:

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم – تحقيق محمد مصطفى وعبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت – ط . الأولى سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

ذم الهوى – تحقيق مصطفى عبد الواحد

ابن العماد : عبد الحي بن أحمد العكري الدمشق الحنبلي (١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب – دار الكتب العلمية – بيروت

ابن تغري بردي : جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – مصر

ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم : رسائل وفتاوي ابن تيمية في الفقه .

ابن حوقل : أبو القاسم النصيبي (٣٦٧ هـ) : صورة الأرض ط. الثانية سنة ١٩٣٨م – ليدن

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان وأنباء الزمان – تحقيق : د. إحسان عباس – ط. سنة ١٩٦٨ م – دار الثقافة – بيروت .

ابن منظور : محمد بن مكرم بن منظور المصري (٧١١هـ) لسان العرب ط . الأولى – دار صادر بيروت.

البخـــاري : محمد بن إسماعيل البخاري : الجامع الصحيح .

بـــدوي : د عـــبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين – الطبعة الثالثة ١٩٩٣– دار العلم للملايين – بيروت.

التويجـــري : عبدالعزيـــز بـــن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بحث نشرته المنظمة (ايسيسكو) .بعنوان : خصائص الحضارة الإسلامية

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) كتاب الحيوان ط. سنة ١٩٤٥م – القاهرة

حـــسن : حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي– ط. السابقة سنة ١٩٦٥م–دار الأندلس بيروت .

الحمـــوي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦ هـ) معجم البلدان –طبعة دار الفكر بيروت : ج١ ص ٥٢٦ .

الـــدفاع : علي عبد الله الدفاع : إسهام علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ،والكيمياء . ولمحات من تاريخ الحضارة العربية والإسلامية .

الدمرداش : أحمد سعيد الدمرداش : تاريخ العلوم عند العرب .

الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٧٤٨ هـ) :

– العبر في خبر من غبر تحقيق : د. صلاح الدين المنجد . مطبعة حكومة الكويت – الكويت – ط. الثانية سنة ١٩٤٨م .

– سير أعلام النبلاء : ط. مؤسسة الرسالة .

الـــرازي : محمـــد بن أبي بكر بن عبد القادر (٧٢١ هـ) : مختار الصحاح– مكتبة لبنان ناشرون – بيروت- طبعة جديدة سنة ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م – تحقيق : محمود خاطر .

سليمان الخطيب : أسس مفهوم الحضارة الإسلامية ، دار الزهراء للإعلام العربي، ط. الأولى ، سنة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م .

السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١ هـ) تاريخ الخلفاء ط. الأولى سنة ١٣٧١هـ -١٩٥٢م – مطبعة السعادة مصر – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

الطاهر : عبد الباري محمد الطاهر : فرسان والخلافة في العصر العباسي الأول – ط. الأولى – سنة ١٩٩٤م دار رياض الصالحين الفيوم – مصر

الطـــبري : أبي جعفر محمد بن جرير (٣١٠ هـــ) : تاريخ الأمم والملوك – ط. الأولى سنة ١٤٠٧ هـــ – دار الكتب العلمية – بيروت .

عارف : نصر محمد عارف الحضارة ، الثقافة، المدنية ، ط. ١٤١٤هـــ

الفيومي : أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (٧٧٠هــ): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي – المكتبة العلمية – بيروت.

القـــرطبي : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله (٦٧١ هـــ): الجامع لأحكام القرآن – دار الشعب – القاهرة – ط . الثانية سنة ١٣٧٢ هـــ – تحقيق : أحمد عبد العليم البردوني

القـــسطنطيني : مـــصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي (١٠٦٧ هـــ) : كشف الظـــنون عن أسامي الكتب والفنون :– دار الكتب العلمية – بيروت – سنة ١٤١٣ هـــ – ١٩٩٢ م –

القضاعي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (٦٥٨ هـــ) : الحلة السيراء – تحقيق : د . حسين مؤنس – ط. الثانية سنة ١٩٨٥ – دار المعارف – القاهرة

القنوجـــي : صديق بن حسن القنوجي (١٣٠٧ هـــ) : أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم – دار الكتب العلمية – بيروت – سنة ١٩٧٨ م – تحقيق : عبد الجبار زكار.

مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، القاهرة

كحالة : عمر رضا كحالة : العلوم البحتة في العصور الإسلامية .

المديد : سليمان بن عبد الله : منهج المسعودي في كتابة التاريخ. ط.الأولى ١٤٠٧ هـــ

المـــسعودي : أبـــو الحسن علي بن الحسين بن علي (٣٤٦ هـــ) : مروج الذهب ومعادن الجوهـــر – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد – ط. سنة ١٤٠٣ هـــ – ١٩٨٣م – دار المعارف – القاهرة .

مظهر :جلال مظهر:حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي.وأثر العرب في الحضارة الأوربية.

منجـــية منسية : مقال الألبسة العربية في القرن الرابع الهجري من خلال أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي – مجلة المعجمية – تونس – العدد ١٤٠٨ هـــ – ١٩٨٨ م .

فهرس الدراسة

الفصل الأول : في مفهوم الحضارة الإسلامية وأنواعها وأسسها وسماتها

الفصل الثاني : من منجزات المسلمين في مجال العلوم التجريبية

الفصل الرابع : قراءة نقدية لكتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز الفصل العشرون (الأخلاق والعادات)